محمد المجذوب

أفكار إسلامية

مؤسسة الرسالة

أفكار اسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الأفكار

هـــذه المحاضرات ألقي بعضها في ندوة (رابطة العالم الاسلامي) بمكة المكرمة، وبعضها الآخر في ندوة (الجامعة الاسلامية) بالمدينة المنورة . وتقدم اليوم إلى القارىء لأول مرة مجموعة في كتاب .

وقد حاولت أن أتخير لها إطاراً عاماً ينسجم مع مضامينها جميعـــاً ، فلم أجد خيراً من (أفكار اسلامية) .. وذلك لسببين أولهما أن الأفكار لا بد لها أن تتخذ احدى صبغتين : إسلامية أو غير إسلامية ، والثاني لأن الفكر الاسلامي ليس مقصوراً على جانب دون جانب من الحياة، بل هو من الشمول بحيث يصلح للبحث في كل شيء ، ولأعمـــال النظر في أي شيء ..

وأحب أن أؤكد على التفريق بين الصبغتين الفكريتين فأوضح أن المنظور الواحد تختلف أبعاده وألوانه بالنسبة إلى الناظرين، تبعاً لأوضاعهم، وصحة أبصارهم، ومساقط الأضواء الموجهة إليه . وكذلك حقائق الحياة ، فهي ذات وضع ثابت لا يتبدل ولا يتحول ، وإنما تتفاوت أحكام الناس عليه بتفاوت مداركهم ، وتباين مؤثراتهم . وبدهي أن أسدّهم نظراً ، وأصحهم تقديراً ، أسلمهم فطرة ، ولن تكون الفطرة سليمة إلا إذا نشأت على أسس الوحي الذي لا يأتيه الباطل . ومن هنا كان المؤمن الحق هو الوحيد الذي ينظر إلى الكون بنور الله ، وكل من سواه ففي ظلمات أهوائهم يعمهون ، وصدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

وبعد .. فهذه أفكار عالجت فيها عدداً من الشئون التي أعتقد أنها في حاجة ماسة للبحث على ضوء الاسلام ، ابتغاء الوصول بها إلى الحكم الصحيح . وكل ما أتمناه أن أكون قد وفقت إلى إصابته بتوفيق الله ، إنه ولي التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

شوال ١٣٩١

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق بين الإسلام والفلسفة

خلق الله الأشياء = أبدعها من العدم ، وخلق الرجل الشيء = قدّره . ومن ذلك قول الحجاج بن يوسف الثقفي : (ما أخلق إلا فريت) يريد أنه لا يخطط لأمر إلا عمد إلى تنفيذه دون تأخير ، ومن قول زهير في المدح : ولأنت تخلق ما فريت وبعـ ... ضُ القوم يخلق ثم لا يفري . وكلا المعنيين متصلان ، لأن خلق الله للأشياء صادر عن حكمته الأزلية التي قدّرت لكل شيء ، مهما دق أو جل ، موضعه المناسب ، ووظيفته التي من أجلها وجد . فالخلق الأول إذاً ابداع مصحوب بالتقدير .. والخلق الثاني كذلك محاولة إيجادِ جديدٍ من العمل لتحقيق غاية معينة . والفرق بين الخلقين

صدور الأول عن المطلق الذي لا يعزب عن علمه شيء ، وصدور الثاني عن المحدود الذي لا يستطيع الإحاطة الكاملة بشيء ..

والخُلُق ـ بالضم ـ ذو علاقة وثيقة بمعنى الخَلق ـ بالفتح ـ وذلك لأنه في أصله مصاحب لأصل الخِلقة ، يوجد مع المخلوق بوجوده ، ثم يأخذ في النمو والتطور وَفْقاً لنمو صاحبه وتطورهِ ، فكل استقامة في سلوك المخلوق وفق السُنَنِ الصحيح تصاحبها استقامة الخلق نفسه ، وكل انحراف أو فساد في ذلك السلوك مؤدٍ إلى مثله في الخلق والتصور . وما أدق اشارة المتنبي إلى ذلك في قوله :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهمِ

كذلك نجد الصلة بين الخَلْقِ والخُلُق من حيث التقديرُ الغائيّ ، فوجود الخُلق في الكائن البشريّ يستهدف أصلاً تزويده بالناظم .. الذي يعينه على معرفة الخيرِ والأحسن وما يقابلهما .

ومن هنا يتضح لنا أن الأخلاق في أوجز تعريف هي **قوة ذاتية ، نُحِسُّ أثَرَها في ترغيبنا بشيء ؛ وتنفيرنا من ضده . فهي إذاً طبيعة مركوزة** في فطرة الانسان ، **وظيفتُهـا**

إصدار **الأحكام** على الأعمال والأشياء بالحسن والقبح ، والخير أو الشر ، والفضيلة أو الرذيلة .. وهي من حيث كونها مصدراً واحداً خفياً لهـذه الأحـكام تسمى (**الضمير**) ومن حيث آثارُها المتعددةُ ومظاهرُها المتكاثرةُ تسمى (**الأخلاق**) .

ثبات الأخلاق وتحولها

وقد لاحظ بعض الفلاسفة تفاوت الأحكام الأخلاقية على الأمر الواحد بين إقليم وآخر ، وبين نحلة وأخرى ، فاستدلوا من ذلك على أن الأخلاق شيء كسبي لا علاقة له بالفطرة ، وإنما تتكون من تواضع الناس في كل وسط على تحسين أشياء وتقبيح أخرى ، مدفوعين إلى ذلك بعامل الحِفـــاظ على مصالحهم ، وبذلك تتصادم هذه المقاييس بين جماعة وجماعة ، تبعاً لاختلاف المصالح ، **فما كان خيراً في مكان قد يكون شراً في غيره ، وما كان حقاً في أمة قد يصبح باطلاً في سواهـا !**

وقد بلغت هذه النظرية أبشع نهاياتهـــا عند فلاسفة الشيوعية ، الذين يقول أحد طواغيتهم وهو (أنجلز) قرين ماركس[1] : (إن الأسباب القصوى لكافة التغييرات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول الناس ، أو في سعيهم

---

(١) جاهلية القرن العشرين ص ١٧٣ و ١٨٩ .

وراء الحق والعدل الأزليين ، وإنما في التغييرات الطارئة على أسلوب الانتاج ! ..) .

وبديهي أن القائلين بهذا الرأي لا يقبلون أن يربطوا بين الأخلاق والدين بأي حال ، لأن الدين نفسه في نظر الماديين لا يخرج عن كونه ضرباً من الايحاء الاجتماعي ، الذي تمليه الضرورات ، كما يزعم الفيلسوف الآخر (دركايم) الذي عرفت فلسفته في المعاجم العلمية بأنها تقوم على (ان المجتمع هو مصدر الحوادث الأدبية والدينية ! [1]) ولا عجب أن يتواطأ على هذا الاتجاه كبار الشيوعيين والغربيين على السواء ، ذلك لأن الأساس المادي هو القدر المشترك بين هؤلاء وأولئك، والفرق بين الفريقين أن الشيوعيين يجاهرون بمحاربتهم للدين مطلقاً ، أما الغربيون فمع اعترافهم بالدين كضرورة بشرية ، لا يسمحون له بالتأثير على سلوكهم الاجتماعي ، بل يعزلونه عن وجودهم عزلاً تاماً ، ولا يَدّعون لأنفسهم صلة به إلا ضمن الكنيسة ! .

وقد برز هذا الاتجاه أكثر ما يكون في فلسفة الذرائع التي يسمونها بالانجليزية (البراغماتيزم) وهي بمثابة دين عملي

---

(١) أميل دركهايم فرنسي من فلاسفة الاجتماع ١٨٥٨ – ١٩١٧ .

للشعب الأميركي عامة ، غـايته اعتبار المنفعة الفردية أساس الحياة ... فكل وسيلة تحقق هذه المنفعة تعتبر أمراً مشروعاً بل مقدساً ! . وبذلك تخضع تصرفات المجموع **لوحي المنفعة المتقلبة** ، دون أي اعتبار للتعاليم الآلهية الـتي تمتاز بالثبات والشمول ! . .

نقد الماديين

وبقليل من التفكير السليم يتضح فساد ما ذهب اليه هؤلاء الماديون ، من اعتبار التفاوت في الأحكام الخلقية دليلاً قاطعاً على أن الأخلاق عنصر دخيل على الفطرة ، تمليـه موحيات البيئة وموجبات المنفعة .. ذلك لأن **الفطرة البشرية صالحة للسلامة والاختلال** ، والانسان لا يستطيع الحِفـاظَ على فطرته السليمة إلا بمقدار ما يبذل لصونها من جهد ، ولا بدّ أن يكون ذلك وفقاً لمخطّطٍ سليم مرسوم من قبل خالقها ، أما إذا أهملها وتركها للأحداث العابرة ، تعبث بها كما تشاء فسرعان ما تنحرفُ عن خط السلامة ، فتسقطُ في الحُفَر المُعَدَّة لاصطيادها من قبل الشياطين ! . وهذا ما نراه جلياً في قول الله تبارك وتعالى : (ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمَها فجورَها وتقواها . قد أفلَحَ من زكّاها ، وقد خابَ مَن دسّاها ..) وفي الحديث القدسي يقول سبحانـه : (وإني

خلقت عبادي حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم..)[1].

وإذاً فخير تعليل لهذا التفاوت في الأحكام الأخلاقية، اعتباره مسبباً من انحراف الفطرة، الذي أدي بدوره إلى فساد هذه الأحكام.

ظواهر الفطرة في الأخلاق

ولعل أبرزَ الدلائل على أصالة الضمير الأخلاقي في النفس البشرية، كوننا لا نعرف في التاريخ مجتمعاً تجرد من قوانين الأخلاق مستقيمة أو منحرفة !.

وهذه جاهلية العرب أقرب الأمثلة على هذا الواقع التاريخي :

لقد ساءت الحياة في هذه الصحراء العربية قبل الإسلام، حتى باتت أشبه بغابات الذئاب، لا حق فيها إلا للأقوى، والويل للضعيف الذي لا يملك القوة، التي يستطيع بها أن يسبق إلى ظلم الآخرين، قبل أن يسبقوا هم إلى ظلمه !. لأن

---

(١) من حديث رواه عياض بن حمار المجاشعي وأخرجه مسلم، وذكره الحاكم في (باب ذكر الانذار) وفي المشكاة (باب الانذار والتحذير) رقم / ٥٣٧١ /.

القانون الأساسي في ذلك الغاب أنه (من لا يَظلمِ الناسَ يُظلمِ) !..

ومع ذلك فأنّى اتجهنا من تلك الغابة نلمح أضواء تنطلق بين الفَينة والفَينة ، فتبدد الكثير من ظلماتها .. وهذا أدبهم الفطري يموج بمثل هذه الأشعة المحيية ..

يقول زهير :

ومَن يُوفِ لا يُذمَمْ ، ومن يُهْدَ قلبه
إلى مطمئنّ البر لا يتجمجمِ

ويقول الأفوه الأودي :

لا يَصلح الناس فوضى لا سراةَ لهم
ولا سراة إذا جُهّالهم سادوا

والخير تزداد منه ما ظفرتَ به
والشر يكفيك منه قلما زاد

وهذا عبد بن قيس يعظ ابنه :

وإذا تشاجرَ في فؤادك مرةً
أمران فاعمد للأعفّ الأجملِ

وأخيراً نستمع إلى حكيم العرب أكثم يلقي علينا هذه التجارب العميقة :

(آفة الرأي الهوى ، البِرُّ يَنمي عليه العَدد . البطرُ عند الرخاء حُمق . الدالُّ على الخيرِ كفاعلِه . من شَدّدَ نفّر ، ومن تراخى تألف . الأدب رفق ، والرفقُ يُمْن) .

ألسنا نرى في هذه الحكم الشاردة قوانين خالدة ! .. إنها صرخات الضمير الثائر بالخرافات الجاهلية ، ينبه التائهين إلى مزالقهم ، ويذكرهم بأن لا نجاة لهم من ضلالهم إلا بالوفاء ، والتعاون على البر ، والتخفف من الشرور ، وبالعفة ، والعدل ، والتواضع ، والرفق ، واختيار الأقرب إلى الخير من جميع الأمور ..

ذلك لأن الفضيلةَ هي الحقيقة التي أجمع البشر على تقديسها ، سواء في ذلك سكان الغابات أو الحواضر . ومكارمُ الأخلاق هي النماذج المنشودة في كل جيل ، يستحق محققوها التقدير والتوقير ، ويَدّعيها حتى الذين ليس لهم فيها نقير ولا قِطمير ! .. ولكن إجماع البشر على هذه الحقائق لا ينفي أن يكون هنا أو هناك من يحاول تفسيرها تبعاً لمنافعهِ الزائلة . وهذا يَعني أن **فساد التصور الأخلاقي للحياة والكون لا يلغي حقيقة الأخلاق** ، وإنما يؤكّد أن ثمة أسباباً أحدثت هذا الفساد ، وعلى المفكرين الأسوياء أن

يسارعوا لِعلاجِها ، لكي يعيدوا إلى الضمير البشري صفاءه الأصيل .

غريزة واكتساب

ونحن عندما نقرر أن الأخلاق قوة ذاتيــة مركوزة في فطرة الانسان ، لا يد له في إيجادهــا .. لا نريد بهذا أنهــا مجردة عن الكسب . كلا .. ذلك لأن هذا الأصل الغَرَزي ، كما هو مستعد لقبول التشويــــه ، كذلك هو مستعد لقبول النَّماء ! .. كالبذرة الصالحة تُدفن في الوسط الجيد فتتفاعل مع طبيعته ، وتندفع إلى السمو حتى تؤتيَ ظلهـــا وثمرها ، وتُنبذُ في الوسطِ الرديء فتتلف أو تنمو مشوهةً لا تهب جَناً ولا ظلالا .. وقد تصادف غذاء مسموماً فتسوق إلى الناس المرض والموت ! ..

هكذا يشب الضمير الأصيل في الوسط الفـاضل ، قوةً دافعة إلى كل معروف ، رادعــةً عن كل منكر .. فإذا تسربت السموم إلى هذا الوسط قاوم الضميرُ شرَّها جهدَه ، حتى إذا عجز عن المقاومة انطوى على نفسه مترقباً الفرصــة الصالحة ، ليعود ثانيةً إلى أداء مهمته في الإرشاد والاصلاح ..

ولكنه كثيراً ما يُحرَمُ هذه المناسبة المنشودة ، فيستمر في عزلته ، حتى تتراكم عليه الأوزار ، فيفقدَ قدرتــه على النهوض ثانية، إلا انفجاراتٍ صغيرةً يطلقها بين الحين والحين،

فتهز صاحبها قليلاً ، ثم لا تلبث أن تخمد فينساها ! .. حتى يقيضَ الله لهذا الوسط الموبوء قوةً إصلاحيةً ربانيةً ، تنزِعُ ناسَه بالقوة والتربية من مفاسدهم لتردهم إلى مـا هجروه من الفضائل ... ويومئذ يجد الضمير النائم سبيله إلى اليقظـة ، فيستعيدُ نشاطه المشلول ..

الضمير والوحي

أجل ان الضمير وهو الرقيب الداخلي الذي زُوِّد بـه الانسان ، لمساعدته على ضبط سلوكـه في الطريق الأقوم ، لا ينفك دائماً وأبداً في حاجة إلى مؤازرٍ خارجي ، يتساند وإياه لصيانة الحياة البشرية من التلوث فالهبوط فالانهيار .

وطبيعي أن الصفة الاولى في هذا المؤازر ، أن يكون معصوماً من الشذوذ عن الجادة .. ولا سبيل إلى توفره على هذه المثالية إلا في هَدْي الخالق .. الذي أنزله على رُسلِه ، وحمل مشعله المصلحون من أتباعهم إلى اخوانهم ، الذين زاغت أبصارهم عن النور .. تحقيقاً لوعدِ الله عز وجل : (فإمّا يأتينّكم مني هُدىً ، فمن اتّبعَ هُدايَ فـلا يضِلُّ ولا يَشقى) . ولا أخطرُ على هذا الضمير من قطعِهِ عن رفـد ذلك الهدى ، ليكون ألعوبة في يد الشيطـان . لا يعرف طريقاً إلى سعادته !. بل ان كل محاولة يبذلها للخروج من شقائه إذ ذاك تدفعه بعيداً عن منبع النور . كشأن المعادلة

الرياضية التي يبدأ حلها من نقطة الخطأ .. فكل اندفاعةٍ في ذلك الطريق مؤديةٌ إلى ابتعاد جديد عن النهاية الصحيحة !. وعلى ضوء معنى قوله تعالى : (ومَن أعرضَ عن ذِكري فإنْ له معيشةً ضَنْكا ...) وبهذا القياس نستطيع تعرفَ حياةِ الامم ، والحكم على حاضرها ومستقبلِها ، فكل التزام للأخلاق الفاضلة قوة للأمة الملتزمة ، ترسخ أقدامها في مجال البقاء ، وتصون مقوماتها من الضعف والفناء ، وكل تفريط بهذه الاخلاق مُؤَدٍ بالمفرطين إلى الارتكاس في حمأة الشقاء ، ومن ثم إلى الانحدار في مزالق الدمار .. ومن هنا جاء القول الحكيم :

وإنما الامم الاخلاقُ ما بقيتْ

فان همو ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

ومما يلفت نظر الباحثين في تاريخ الأمم أن مَلَكَةَ الأخلاق هذه كانت أساسَ التعامل في حياة الشعوب القديمة ، تقوى بقوتها ، وتضعف بضعفها . وكم من أمة بلغت الذروة في القوة أيام كان الخلق الفاضل يحكم علاقات الأفراد في ما بينها ، وينظم عَلاقاتِها مع الأمم الأخرى ، فلما فرّطت في هذا الجانب من حياتها ، هَوَتْ إلى أدنى الدركات ، وزال وجودها السياسي ، فلم تنفعها فلسفاتها التي بلغت القمة ، ولا حضارتها التي كانت تلفت أنظار الأمم !. وكمثل من ذلك

نذكر أمة اليونان القديمة .. ولا ننسى ماضينا من تلك السُنن الإلهية ، فقد حقق الله وعده لأسلافنا بالاستخلاف في الأرض، حين آمنوا وعملوا الصالحات ، والتزموا جادة الحق ، مسترشدين بنور الكتاب والسنه ، فلما جرفتهم رذائل الأمم ، وتخلوا عن رسالة السماء ، ليستمتعوا بمغريات الدنيا، زلزل الله بهم الأرض ، وقلص عنها ظلّ دولتهم ، التي ما كانت لتغيب عنها الشمس !. ثم تتابعت الكوارث على أخلافهم ، على نسبة بعدهم أو قربهم من تلك المعالم الهادية ، حتى انتهينا إلى مواجهة أذل المحن في تاريخ هذه الأمة !..

الأخلاق الاسلامية

ولقد بلغ من عناية الاسلام بالأخلاق ما نراه ماثلاً في قول رسول الله ﷺ : (بعثت لأتمم حسنَ الأخلاق[١]) وفي هذا شبه حصر لهدف الاسلام الأعلى ، بأنه تتميم لبناء الأخلاق العليا . ومن هنا كان حرص الاسلام على استبقاء كل ما عرفه الجاهليون من الفضائل كالوفاء والإيثار ، والجُود، والشجاعة، وما إلى ذلك من عشرات الصفات،التي ما كان العرب يريدون بها سوى السُمعة ، فرفعها الاسلام وكرّمها ، إذ جعلها وسائل لمرضاة الله .

---

(١) رواه مالك بلاغاً ، وأحمد عن أبي هريرة - وإسناده صحيح - أنظر مشكاة رقم ٥٠٩٦ .

وهكذا نرى القرآن العظيم ينكر على الجاهليين الكثير من المآثر ، التي كانوا يحسبونها موضع الفخر ، فلا يذكر بخيرٍ من أخلاقهم إلا ما كان ذا صلة بالخير الذي يمتد نفعه إلى مجموع الناس . ومن ذلك قوله تعالى : (لا خيرَ في كثيرٍ مِن نَجواهم إلا مَن أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بينَ الناس) وهو تكريم يشمل أصحابَ هذه الفضائل أيّاً كانوا .. ونحن نقرأ في كتاب الله ذكر الإيمان في ما يُنيف على أكثر من ستين موضعاً ، وفي كل موضع نجده مقروناً بالعمل الصالح.. وليس العمل الصالح إلا جِماعَ الفضائل التي يحبها الله، ويحب للمسلمين أن يقيموا بنيان حياتهم على قواعدها .

وبهذه الميزات المثالية ، مستهديةً بالإيمان، الذي هو ضابط السلوك البشري في طريق الحق ، قدّم الإسلام للدنيا خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله.. وبهذه الضوابط الروحية العليا - (الإيمان والأخلاق) - انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة . وكان الانتصار ، على روعته وسرعته ، معقولاً، لأن المعركةَ لم تكن في الواقع بين عدد قليل وآخر كثير فحسب، ولكنها كانت بين خُلُقٍ زَوّدَ أهلَه بحب الحق والثبات عليه ، والتسامي به على كل مغريات الأرض ، وخُلُقٍ آخر أفسدَه الترفُ ، وأوهنته الشهوات ، وحَطّمه الفراغ ، فلم يكن غريباً أن يُحرز النصرَ في هذه الحومةِ أقوى الخلقين !..

وهكذا كانت الأخلاق الاسلامية طاقة جديدة ، اشتملت على كل عناصر القوة ، فهي في ميادين القتال لا تعرف التراجع أو الهزيمة ، لأن الموت في سبيل الله أحب إلى أهلها من الحياة عند أعدائهم . وهي في ظل السلام ِخصب وحياة ورحمة وعدالة ، لا تحابي قريباً على بعيد ، بل تَصدع بالحق ، ولو قضَى الحق بتسليم المسلمِ نفسَه إلى أقسى العقوبات !.

وهي في مجالات العلم نور كشاف ، يبدد الظلام ، ويعم الأنام ، ويقود عباد الله إلى سُبُل الاخاء والسلام .. ولا غروَ بعد هذا أن يذلل الله لعباده هؤلاء أكنافَ الأرض ، ويضعَ في أيديهم الأمينةِ أزمَّةَ الخَلْق ، ويجعل منهم أساتذةَ العالمين !.

نماذج أخلاقية

سئلت عائشة (رضي الله عنها) عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : (كان ُخلـُقُه القرآن[١]) وتريد بذلك أنه ، صلوات الله عليه وسلامه ، قد حقق بسلوكه الكامل مجموع الآداب التي اصطفاها الله لعباده الذين أحبهم ، فأنزلها قرآناً يُتْلـى ويُتَعَبَّد به .. وقد خاطب الله تعالى عباده المهتدين بقوله الحكيم: (لقَدْ كان لكم في رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنة)..

(١) من حديث طويل رواه مسلم عن سعد بن هشام عن عائشة (رض)

وبذلك فرضَ عليهم أن يتخذوا من سلوك رسوله ، ﷺ ، مَثلَهم الأعلى ، فيتسابقوا إلى متابعتِه ومقاربتَه بكل ما وسعهم من جهد . وإذا عجزوا عن اللحاق به في قمم الكمال ، وهم عاجزون حتماً ، فحسبهم أنهم وراء خطواته لا ينكصون ولا ينحرفون .. ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ..

وقد أحاط الأولون من سلفنا الصالح بمعنى هذه الأسوة على وجهها الأتم ، فإذا هم خير أمة أخرجت للناس ، بشهادة ربّهم نفسه ، حتى اننا لنطالع سِيَرَهم فيدهشُنا أننا لا نجد لهم مثيلاً في غير النبيين صلوات الله عليهم ، ورضي الله عنهم أجمعين ..

كان العربي مَثَلاً رائعاً في الشجاعة المتهورة ، يقتحم غمرات الموت لا يبالي العواقب ، وكل ما يرجوه ذكر حميد يتركه في الناس ..

ولكن كل شجاعة العرب تتضاءل حتى تبدو قزمة ، عندما تقاس بشجاعة الصّديق ، وهو يُعلن تصميمه على قتال أهل الردة منفرداً ، بعد أن وجد جميع الصحابة معارضين لرأيه في هذا الشأن !..

وأي إيمان غير إيمان الأنبَياء يوازي ثقة الصديق بوعد ربه ، حين أصر على إنفاذ جيش أسامة طاعةً لرسول الله ، وهو يعلم أن العدو على أبواب المدينة ، يترقب من المسلمين

غفلة ، وأن اخوانه من الصحابة بأجمعهم مخالفون لرأيه في هذا الموقف الرهيب !..

هذه واحدة من معجزات الأخلاق ، التي أنشأها الاسلام في نفس الصديق ، وقد اقتبسها من مشاهداته لعظمة الرسول ﷺ في مثل أُحُدٍ وحُنَين ، وقد تفرق عنه الناس ، وهو ثابت في وجه العدو المتدفق عليه من كل جانب !..

ولعل استجابة الصحابة لرغبة الصديق ، وتنفيذَهم لتصميمه أخيراً ، وهو الوحيد الذي لم يكن بجانبه أحد في ذلك ، لا يقلان روعة عن موقفيه العجيبين .. لأن الذي ألزمهم بذلك إنما هو واجب الخضوع لأمر الله تعالى في قوله الخالد : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأُولي الأمرِ منكم..). ولا سيما بعد أن اطمأنت قلوبهم إلى صواب ما ذهب اليه .

وماعِزٌ الأسلميُّ واحدٌ من عامة صحابة رسول الله ﷺ.. قد ورطه الشيطان في كبيرة الزنى ، ولكنه ما لبث أن تذكر عظم ذنبه ، فناء به عزمه ، ولم يسترح حتى أسلم نفسه للرجم بالحجارة حتى الموت[1] !.. وهكذا دفع حياته ثمناً للتطهر من الإثم ، وأملاً بمغفرة الله !..

ومثله الغامدية التي زلت بها القدم ، وحملت من الفاحشة ، فجاءت رسول الله ﷺ تلتمس منه التطهير بالرجم .. ثم

(١) خبر ماعز هذا ورد في حديث متفق عليه .

ما زالت تراجعـــه حتى تحققت بغيتُها ، ودفعت حياتها ثمناً للنجاة من عذاب الله[1] !.. وليس هـــذا وذاك إلا نتيجة سلطانِ الإيمان ، الذي ربط قلوبهم بموعود الله ، فكانت مرضاته أحب إليهم من الحياة .. ومسارعةً إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

وهذا عبادةُ بن الصامت من أبناء المدينـة المنورة ، ومن تلاميذ المدرســة النبوية الأُوَل ، يَقْدُمُ على صاحب مصر ، على رأس وفد من مجـاهدي المسلمين ، فيحاول هذا تخويفَهم بنجدات الرومان ، ثم يحـاول إغراءهم بالأموال والنفائس ، فيبتسم ثم يقول له : أبالموت تخوفُنا !! ووالله ان أحـدنا لم يخرج من بيته إلا وهو يضرع إلى الله أن لا يرده إليه ، وأن يقبله شهيداً في سبيله !.. أم بالدنيـــا تُغرينا ، وان أحدنا ليكتفي من دنياه بحفنة من سَوِيق ! » .

وطبيعي أن في هــذا التصميم صورة نموذجية من الخلق ، الذي جعل الواحد من هؤلاء الصحابة أكبر من الدنيـــا .. وكيف لا يكون كذلك ، وقد رأى رسول الله ﷺ يقف في وجه قريش كلها لا يقبل منهـا غير الاسلام ، وهو الفقير الأعزل إلا من عصمة ربه وتأييده ، حتى يقول لعمه ، وهو

---

(١) وخبر الغامدية من رواية مسلم . انظر (نيل الأوطار) ج ٧ كتاب الحدود .

يعرض عليه ما تعهدوا له به من الملك والمال : (واللهِ لو وَضعُوا الشمسَ في يميني والقمرَ في شمالي ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته ..) .

وقد سجل لنا التاريخ ما لا يُحصى عَدداً من أمثال هذه العجائب الخلقية ، التي امتاز بها أبناء هذا الدين ، لا في عصر الصحابة فقط ، بل في جميع الأعصار والأقطار .. حتى في أيامنا هذه ، حيث بَعُدَ عهدُ المسلمين بمثُلِ دينهم ، فكادوا لا يعرفونها إلا من خلال القرآن العظيم ، أو السنة الحكيمة .. حتى في هذه الأيام لا نزال بفضل الله نرى بقية من خِلالِ الاسلام تؤكد لنا أنه لا يزال قادراً أن يقدم للبشرية أعاظم أبطال الأخلاق ...

في اللاذقية – المرفأ السوري المشهور – جرت هذه الحادثة الغريبة :

دخل تاجر حلبي أحد المساجد ، وعقب الصلاة مضى إلى السوق ، ليشتري البضائع التي يريد ، ثم بعد ساعات تذكَّرَ أنه نسي حزامَه المالي في كوة المِرحاض .. وفيه ثروتُه كلها !.. فركض نحو المرحاض فلم يجد شيئاً ، وكاد يُصعق من الجزع ، ثم دعا بمنادٍ يطوف الأسواق معلناً جائزةَ عشرة دنانيرَ ذهبيةٍ لمن يعيد إليه ضيعته !.. وما هي إلا دقائق حتى جاء خادم المسجد ، يسأله علاماتِ حزامه ، ثم يأخذ

بيده ليسلمه إياه .. وما إن لمحه حتى أكب عليه يضمه إليه ، ثم يأخذ منه عشر قطع فيقدّمها إلى الخـــادم مكافأة له ، ولكن الخادم أبى أن يمس العَطية ، لأنه لا حق له فيها !.. فما كان من الحلبي إلا أن صرخ به : يا رجل .. انها مخَمّسات ذهبية تعدل قيمتها خمسين ديناراً !.. فابتسم الخـــادم وهو يقول له : وهذا ما يزيد ابتعادي عنها ، فخذ مالك واكفني محاولتك ... »

أتدرون كم كان في هذا الحزام ؟ .. خمسمئة قطعـة من ذوات خمسة الدنانير !.

ثم هل تصدقون أن هذا الخادم ما كان ليملك قوتَ يومه إلا عن طريق المحسنين !!

هذه واقعة لو ُكتِبتْ في إحدى الصحف الغربية لمـــا صدقها أحد .. لأنهم لا يتصورون وجود أخلاق من هــذا النوع ، الذي يرفض المنفعة إيثاراً لمـا عند الله ! .. ومع ذلك فهي واقعة معروفة ، وقد سجلتها الصحف السورية في حينها ، ولم يستغربها أحد من المسلمين، لأنهم لا يزالون يقرؤون قول الله (إن اللهَ يأمُركم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلِها .) ولا بدع أن يقع مثل هذا الحادث في كل بلد اسلامي ...

ولنختم أخيراً هذه النماذج بعجيبة باكستان التي لم يَنسَها العالم بعد ..

لقد نفِذَ صبر المسلمين على وحشية الوثنيـــة الهندية وعدوانها المستمر على ضعفاء المسلمين في كشمير وغيرها ... فتحركت الهمة الاسلامية ، وأعلنَ فقهاء الاسلام الجهـادَ ، فإذا الإيمان يخضُّ القلوب في لحظات ، فيحررها من معصيةِ الله ، ويسيطر روح الفداء على المسلمين حكاماً ومحكومين ، وتجاراً وعمالاً وجنوداً ، فتفيض الأرض الطاهرة ـ باكستان ـ بالمعجزات .. وعملت القلة المؤمنة ما ذكـَّر الدنيا بأعمال القلة السابقة يوم بدر وأُحُد وحنين ... وإذا العدو المختال بعُدَدِه وعَدَدِه ، المصمم على إلغاء باكستان ومحوِها من الأرض ، يُمَرَّغ بالهوان ، ويسلم ساقيه للريح ، مخلفاً عتادَه وذخائرَه غنيمة للمؤمنين ! .. ولو استمرت دفقة الايمان في طريقهـا لتحررت كشمير من الطغيان ، ولقـُضي إلى الأبد على أحلام عبدة القرود والثيران ! ... ولكن السياسة الـتي أسلمت أولى القبلتين ، وقفت الزحفَ الاسلامي ... وأطفأت اللهب المقدس[1] ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ! ...

أليس في هذا أيها الأخوة براهينُ لا تُرد على أن الاسلام ، كعهدهِ في الصدر الأولِ ، لا يبرح يَنبوعـــاً لا ينضب من القوةِ والرجولة والفداء ! ...

أليس هذا تحقيقاً لقول الله تعالى : (إن تنصروا اللهَ

---

(١) وبذلك هيأت الجو للمأساة التي تعانيهـا باكستان اليوم من عصابة (مجيب الرحمن) ومن وراءه من عملاء الشيطان !

يَنصرْكُم ويُثَبِّتْ أقدامَكُم) (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ..) ! .

وأي عجب في أن يفجِّر الاسلامُ كل هذه الطاقات ، ويحقق كل هذه المعجزاتِ ، وهو الدين الذي كل عبادة فيه نظام كامل للتربية الروحية والجسدية .. وبرنامج شامل لغرس العادات الفاضلة وتكوين الملكات النبيلة ! .

وأخيراً

إن العالمَ الاسلامي ، وهو يحاول اليوم استعادة مكانته في قيادة الوجود ، يعاني أزمة كبيرة في حياته الاجتماعية ، مردها إلى انقطاعه عن سبيل السلف الصالح من ناحية الأخلاق ، وهو وضع من شأنه أن يعوقَ نهضتَه إلى حد كبير ، إذا لم ينحرف بها عن الطريق الصحيح ... فجدير إذاً بكل شعب ، بل بكل فرد من هذه الأمة ، أن يتلمسَ مكان الضعف في أخلاقه ، فيعمِدَ إلى معالجتها بالدواء الذي لا شفاء بسواه، الدواء الذي عالج به رسول الله ﷺ أمراضَ المجتمع الأول ، فكوّن من أفراده المتناحرين الأنموذجَ الأمثلَ للانسانية الرشيدة ...

يقول أحد المفكرين : (إننا بحاجةٍ إلى قليل من العلم ولكننا بحاجة إلى كثير من الأخلاق) وهذه حقيقة لا يجوزُ تجاهلُها ، لأن العلم الذي لا ينهض على أساسٍ من الضمير

النقي ، لا يعدو كونَه وسيلةً إلى تدمير ذويه ومن حولهم .. مَثَلُه في ذلك كمثل النقد عندما يتضخم ، دون أن يكون وراءه رصيد من الضمان الموثوق ، فكل زيادة في حَجمِه زيادة في هبوطه ، وفي انهيار الثقة بدولتِه ! ..

ونظرة واعية إلى تاريخ الانسانية تؤكد لنا أن أعظم الناس تأثيراً في مجراه ، إنما هم أولئك الأفذاذ الذين امتازوا بالتحرر من الرذائل ، وتحققوا بأكرم الفضائل ، فكانوا خير برهان على أنه لا يصلح للحياة ، ولا يصلح للنهوض بأعباء الحياة ، إلا هذا الطراز الممتاز من الأباة الهداة ...

وصلى الله وسلم على سيد ولد آدم ، الذي كان المثل الأعلى للخلق القويم ، والذي يقول في مدحه الحكيم العليم : (وانك لعلى ُخلـُقٍ عظيم) ! ...

•

ثنائية التعليم وأثرها في حياة المسلمين

أصبح من نافلة الكلام القول بأن الاسلام هو النظام الذي يحكم تصرفات الانسان جميعاً ، فلا شيء إلا وله فيه حكم الحل أو الحرمة أو الاباحة أو الكراهية ... وهو بذلك يعد المسلم بالعين التي تربط بين الدنيا والآخرة ، فترى الحياة الزائلة مرحلة يعبرها إلى الحياة الباقية ، وأن مصيره هناك هو نتيجة مساعيه هنا ، فيحاول بكل ما وسعه من جهد أن يُحسِّنَ ذلك المصير ، بتحسين عمله ومعاملته لكل من له به صلة من أبناء آدم .. بل وغيرهم من الحيوان والنبات والجن والملائكة .. وحتى الجمادات ، فلا يدع ولا يأخذ إلا وفق (المخطط العاصم) الذي يشد خطاه أبداً في طريق البر والتعاون عليه ..

والمخطط العاصم ، وهو شريعة الله الخالدة ، لا سبيل إلى تطبيق موجباته ، واجتناب محظوراته ، إلا بالعلم الذي يوضح أحكامه ، ويحدد علائق المؤمن بما حوله من الكائنات ، ليقيم صلته بها على نور لا ظلمة معه .. وبذلك يحقق بطريقة عملية، هدف الاسلام الأعلى ، الذي يحصر مهمّة رسوله (ص) بأنه رحمة للعالمين .. ويعين وظيفة المسلم في هذه الأرض ، بأنها إيصال هذه الرحمة إلى كل انسان ، وذلك بتبليغ الدعوة الهادية المنقذة ، والتعاون على تكوين المجتمع الأفضل ، الذي فيه تتحقق فرص العدالة والسلام جميعاً .

وفي ضوء هذا المفهوم الصحيح لدين الله ، لا يسعنا أن نقبل أي فصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا .. وإن كنا نقدم الأولى على الثانية ، من حيث التصنيف في ميزان الخير ، فلأن معرفة الحق ، والباطل ، والحلال والحرام ، هي الأساس الذي يجب أن تنهض عليه علوم المادة جميعاً ، ولأن شريعة الله هي الضابط الوحيد الذي ينظم سلوك المؤمن ضمن حدود الخير العام ..

ومعلوم أن الخالق العظيم ، الذي ألزم الانسان تنفيذ أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأداء عزائمه ، والاستمتاع برخصه .. كما أودعه القدرة على ذلك التنفيذ ، أودعه أيضاً دوافع التطور الذي به ينشىء المدنيات والحضارات ، وبه

يحقق الحكمة الآلهية التي سخرت له ما في السموات والأرض، ليصنع من خاماتها المزودة بالخواص المختلفة كلّ ما من شأنه أن يجدد الحياة، ويقرب المسافات، ويحقق التفاهمَ بين أشتات الجماعات. وهي غاية يجهلها أولئك الذين حبسوا مواهبهم في نطاق العلوم المادية وحدها، فحرموا أنفسهم ضياء الوحي، الذي يرشدهم إلى خير السبل، التي لا مندوحة لهم عن سلوكها لتوجيه العلوم إلى خير البشرية ...

ولقد آن لرجال المخابر والكشوف المادية أن يرجعوا إلى ضمائرهم، ليتعلموا هذه الحقيقة الكبيرة، وهي أن بعدهم عن الله، وغفلتهم عن مسئوليتهم أمام الله، هما اللذان دفعاهم لاستعمال كشوفهم في تدمير إخوانهم وأوطانهم وفي النهاية إلى تدمير أنفسهم ..

مسئولية المسلمين

ولكن القوم بانصرافهم عن هَدْيِ السماء لم يجدوا مناصاً من اتباع الأهواء، فهم لا يرون من دروب الحياة إلا ما يقابلهم، مما يتوهمونه مصلحة لهم أو لمن حولهم من ذوي قرباهم! . وهكذا ألقوا بثقلهم في الظلمات، ثم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم في مستنقع مشحون بالآفات، لا سبيل للإفلات من حبائله، لأن كل محاولة للخلاص منه تدفع بهم مرغمين إلى مزيد من الغوص في وحوله! .

ومن هنا جاء الشقاء الذي تعـــانيه البشرية في طول الحياة وعرضها ... ولا عجب في ذلك ، فالمدنية عندمـا تخرج من أيدي المؤمنين ، ستكون كالقاطرة التي يقودهـــا سائق سكران ، فهي تجري بمن فيها إلى الهاوية جهـلوا أو علموا ... ونحن ... من نحن ؟!... ألسنا من راكبي هذه القاطرة شئنا أو أبينا ؟ .. فما الاحتياط الذي اتخذنـــاه للانتفاع بخيرها ، دون الوقوع في شرها ؟ .. ثم من المسئول عن توعية رفاقنا في هذه القاطرة لإعلامهم بما هم فيه ، وما هم مقبلون عليه ؟ .. والأهم من ذلك .. من المكلَّف توعية السائق نفسه، وكفُّ شره عن مجموع الركب ، وذلك بتنبيهه إلى واقعه ، فإذا ركب رأسه فبتأليب المساكين من الركب عليه .. لينقذهم ونفسه من الخطر الداهم !

الحق أن أحداً من الخلق لا يملك حق الادعاء ، بأنه هو المسئول عن التوعية البشرية ، وضبط مسيرة السائق لقاطرة المدنية إلا المسلمين .. وذلك لأنهم الوحيدون الذين يحملون المخطط الصحيح لسير هذه القاطرة .. فإذا هم أغفلوا ذلك المخطط ، واندفعوا مع السالكين في الظلمـــات ، كانوا هم المسئولين عن تدهورها بمن فيها !. وتلك هي الحقيقة الناطقة في وثيقة السماء ، التي تحدد مهمة المسلم في هذه الأرض ، بأنها الدعوة إلى الله على بصيرة ، وإخراج العالم البشري من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور

الأديان إلى عدل الاسلام .. فهل ينهض المسلمون اليوم بهذه المهمة ؟. وهل هم عاملون على أداء الأمانة إلى أهلها ؟.. ما أحسب مسلماً واحداً معاصراً على ظهر هذه الكرة يستطيع إدعاء ذلك !. ولا غرابة ، فالمسلمون مشغولون بنكباتهم عن أمانتهم، ثم انهم لمنصرفون عن مهمتهم كلها بالاستسلام لشياطين الحضارة الغربية ، التي بهرتهم أضواؤها ، فأخذوا يهبشون من محتوياتها ، دون تفريق بين نافعها وضارّها ، كحاطب الليل ، لا يفرق بين الحية والخشبة !.

وانها لفَوضى ضاعت في ظلماتها معالم الشخصية الاسلامية، إذ فقدت ضابط الوعي ، فشلّت طاقاتها ، وأصبحت من العجز بحيث لا تعي وجودها ، فضلاً عن أن تتقدم إلى الانسانية برسالتها ... ومن هنا كان العمل لعلاج هذا الوضع أول واجبات المصلحين . وأنا حين اختار لمحاضرتي هذه موضوع النظام التعليمي في العالم الاسلامي ، وما فيه من صحة وسقم ، فلاعتقادي أن تصحيح هذا الجانب من حياة المسلمين، هو الكفيل بتصحيح المسيرة الاسلامية كلها في الطريق الأقوم إن شاء الله ..

بين الأصالة والتقليد :

قلت إن المفكر المسلم لا يستطيع قبولَ الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، إلا في حدود الضرورات ، التي تقتضي

تميز كل علم بحدوده وعناصره مع كونها جميعاً تؤلف الثقافة الكلية ، التي تمكننا من معرفة السنن الكونية ، لاستخدامها في نطاق التوجيه الإلهي ، الذي يفرغ معنى العبادة على كل عمل يتجه به المؤمن إلى مرضاة الله ، وإلى الاستمتاع بالمباح من نعم الله ... وهذا ينتهي بنا إلى القول بأن كل معرفة تؤدي إلى تحقيق هذا المنهج الرباني ، إنما هي من صميم العلوم الاسلامية .. يلتقي على ذلك علم التوحيد ، وعلم الذرة ، لأن الغاية الأساسية من المعرفة هي تصعيد الأشواق الروحية نحو جلال الله لاستجلاء حكمته ورحمته المتجلية لعين المفكر في كل صغيرة وكبيرة من عُلْوِي هذا الكون وسفليه .. وما دمنا لا نستطيع الحكم على صحة عمل أو فساده ، مهما دق أو جل ، إلا من خلال النظر الشرعي .. فمعنى ذلك أن هذا النظر يجب أن يظل هو المهيمن على كل اتجاه في حياة الانسان، سواء من ناحية التفكير المحض ، أو من ناحية علاقته العملية بما حوله من أشياء هذا الكون .. حتى يضبط سلوكه ضمن حدود المباح أو الواجب ، فلا ينحرفَ بأي كشف علمي عن أمر الشريعة ونهيها .. وهو نهج لا يستطيع تصورَه غيرُ المسلم ، ولا يتسنى إدراكه لأولئك الذين يقولون بأن العلم والدين لا يجتمعان ، وأنه لا بد من إعطاء ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !.. كشأن المشركين من قبلهم الذين قالوا : هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا !

ومن هنـــا يتبين الخطأ الكبير الذي تتعرض له معظم الحكومات الاسلامية في هذه الأيام ، حيث عمدوا إلى تمزيق وحدة التعليم فقالوا : هذا منهج للتعليم الديني ، وهذا منهج للتعليم المدني ـ أو العـــام ـ !.. ثم لم يلبث ذلك التخطيط الدخيل أن أخرج لنا جيلين ، لكل منهما عقليتـه وتصوره وسلوكه !..

ولا حاجة للكلام عن مصدر هذا التمزيق ، فكل ذي بصر يعلم أن باعثه هو محض التقليد لمخططات الغرب ، الذي قضت ثورته بوجه الكنيسة أن يجرد البحث العلمي من كل سلطان روحي ، وقضت على الكنيسة كذلك أن تدافع عن بقائها باقامة منهجها الاعتزالي ، الذي لا يقيم وزنـــاً لعالَم البحث ، إلا بمقدار ما يخدم أهدافهـــا التبشيرية ، وبخاصةٍ خارجَ حدودِ ذلك المنطَلَق العلماني !..

وللتيقن من ذلك نرجع الطرف قليلاً إلى ماضي الثقافـة الاسلامية ، قبل احتكاكنا بالغرب الجديد .. فسنرى النظرة الاسلامية هي الموجهـة لكل تصور فكري .. حتى الفِرَقُ الضالة التي انسلخت عن الاسلام ، لم تستطـع أن تتجرد عن سلطانه ، فراحت تزعم أنها ، بتأويلاتها الفلسفية المستورَدة من مواطن الوثنية الأولى ، إنما تحقق معاني الاسلام نفسه !. وهناك في أطواء ذلك الماضي العريق، سنلتقي بمئات المفكرين من عباقرة الحضارة الاسلامية ، جمعوا بين أشتات العـــلوم

الكونية في نطـاق الفهم الاسلامي المحض ، فلم يأخذوا تلك العلوم بالتسليم ، بل كان موقفهم منهـا موقفَ الناقد المقوِّم والمصحِّح ، وبذلك أعـادوا لتلك العلوم طابَعَ الفطرة ، حتى أصبحت في مقياس المؤرخين من عناصر الثقافة الاسلامية الأصيلة .. ولعل مما يدهشنا في رجال ذلك الماضي، أن نلتقي بأكابر أئمة الفقه الاسلامي ، وقد تسَنَّموا المقامات العليا في العلوم الكونية ، إلى جانب إحاطتهم العميقة بأحكام الدين .. ولم يكن لهم من حافز إلى ذلك سوى تحقيق التوجيه القرآني بتقليب النظر في ملكوت الله .. ومن هـذه الظاهرة استدل بُحَّاث العصر الحديث من خبراء الشرق والغرب : ان القرآن العظيم هو المصدر الأول لكل ما استوعبته حضارة الاسلام من علوم وفنون وكشوف .. لأن في مضامينه الربانية بواعثَ دفَّاعةً إلى التأمل في كل ما من شأنه توسيع قواعد الحضارة.. وهو رأي يلتقي عليه علمـاء الاسلام ؛ الذين يقول بلسانهم الإمام بدر الدين الزركشي في كتابـه (البرهـان في علوم القرآن) : « وكل عـلم منتزعٌ من القرآن ، وإلا فليس له برهان ... » ويَروي عن البيهقي قولَ ابن مسعود (ر ض) (من أراد العلم فليثور – يفتش – القرآن ، فإن فيه عـلم الأولين والآخِرين) . وكذلك المنصفون من غير المسلمين ، الذين تقول مي زيادة بلسانهم :(ان القرآن هو المنطلق الأول لجميع العلوم التي تُكوِّن الحضارة الاسلامية !) .

بين عقليتين :

أجل .. ذلك هو طريق المسلمين في سلوكهم الحضاري .. لم يعرفوا الانحراف عنه إلا في محاولات عابرة ، نجمت على أيدي بعض الزائغين ، ممن أخذوا ببريق الثقافة اليونانية والهندية ، وبلغت من التضخم ذات يوم حدّاً هدد الفكر الاسلامي بالخطر ، إذ سيطرت على أزمة الدولة ، وألقت بصفوة من رجال الاسلام في محنة عارمة ، صبر لها من عصمه الله ، وتضعضع أمام هولها من عجز عن الاحتمال ... كما برزت في مذاهب باطنية أخرى استحوذت على كثير من الغوغاء ، وحشدتهم في ثورات دامية هدّمت مدناً ، واستأصلت شعوباً ! ..

ولكن ذلك كله لم يَعْدُ أن يكون إعصاراً رهيباً زلزل الأوضاع إلى حين ، ثم لم يلبث أن استنفدَ أغراضه إذ تحطم على أقدام ابن حنبل ، والغزالي وابن تيمية ... والثُلةِ المؤمنة الثابتة من إخوانهم ، فاستأنف الفكر الاسلامي مسيرته خلال زعازعَ أطبقت على العالم الاسلامي ، في غزوات الصليبيين ، ونكبات المغول ، فحَدّتْ من انطلاقته الصاعدة ، وملأت دربه بالعثرات ، حتى فوجىء بطارق الحضارة الغربية تقتحم عليه معاقله ، وتهاجم مفاهيمه ، فينهض للدفاع عن نفسه وعن تُراثه ، في غمرة من التضليل جرفت الكثيرين من جنود الاسلام ، ولم ينج من سمومها إلا من رحم الله ! ..

وقد تعمدت استعمال كلمة (جنود الاسلام) ، لأن تيار الفكر الغربي كان من الشدة والاغراء ، بحيث اجتذب غير واحد من مجددي الفكر الاسلامي ، الذين حاولوا بإخلاص النهوض بالمسلمين لمجابهة تلك المغريات بسلاح العلم والحجة ... ولكنهم سرعان ما خيل اليهم أنهم مضطرون لمسايرة المفاهيم الجديدة ، على حساب بعض الحقائق الاسلامية ! . ذلك أنهم رأوا أن المنهج الغربي لا يُسيغ التسليم بحصول المعجزات الخارقة للقوانين الكونية ، ولا يستطيع تصور بعض الحقائق الغيبية ، فراحوا يتقربون من العقلية الغربية بأن يصطنعوا لها التأويلات المادية ، التي تعارض ما ثبت عن أئمة السلف !. ولم يتورع بعضهم عن التسلل إلى حرم الصحاح من الأحاديث، فراح يثير غبار التشكيك في حقيقتها وقيمة رواتها من الصحابة والتابعين ! ... وزاد بعضهم فشجع على تعطيل نصوص الشريعة .. إذ زعم أن المصلحة في تعطيلها أكبر من المصلحة في تنفيذها. عياذاً بالله! . الأمر الذي كان مصدر ارتياح كبير لدى شياطين الفلسفة الغربية ، الذين يقول أحدُهم (جيب) في وصف ذلك التحول الخطير : « إن هذا ليعتبر لبنة في بناء الحركة التحررية العلمانية [1] .

وأود من اخواني المستمعين والقارئين أن يحدقوا جيداً في

---

١ — الاتجاهات الوطنية ص ٣١٩ ج ١ .

تعبير جيب هذا ... إنه يتصور مجرد تحول بعض علمـــاء الاسلام عن منهج السلف في تفسير المعاني القرآنية والأخبار النبوية ، بمثابة الخطوة الأولى في طريق التمدن الغربي ، وهي الخطوة التي لا بدّ منها للوقوع في وحول العلمـــانية ، منهج الفكر الغربي الذي يترجمه الدكتور (صـادق العظم) في محاضرته التي ألقاها على ُمدَرَّج الجامعة الأميركية في بيروت، حيث يعلن براءته من عقيدة الاسلام القائمة على اليقين بحرية التصرف الإلهي .. التي لا يتنكر لها إلا مخبول يقـــال له فيقول !..

أما آثار هـذا التحول فأكثر من أن تحصر في محـاضرة كهذه .. وسأكتفي منها بواحدة ، لعلها تؤلف قمة المحنة التي أحاطت بالفكر الاسلامي الأصيل في مرحلته الراهنة ..

لقد صاحب التسلطَ الغربي على ديار الاسلام موجـةٌ من الاتجاهات الغربية في نطاق الفكر الاسلامي ، كان من آثارها المباشرة إعدادُ جيل من المأخوذين بها لاستخلافهم في تنفيـذ أهدافها عند الحاجـة .. حتى إذا اضطر المستعمرون للتخلي عن سلطـانهم السياسي في تلك المنـاطق الاسلامية ، سهلوا لصنائعهم أولئك سبيلَ الاستيلاء على أزمة الحكم .. وبذلك ضمنوا استبقاء سلطانهم الفكري على معظم جوانب المجتمـع الاسـلامي ، بغير أن يستعملوا لذلك رصاصة ، أو يتكلفوا جهداً ، سوى بعض الاشارات يطلقونها بين الحين والحين ..

فيتبعها استعجال في بعض الحركات ، أو إيغال في بعضها الآخر .. كما فعل الانكليز حين فرضوا على مصر في معاهدة ١٩٣٦ أن تذهب مذهبهم في الحكم والادارة والتشريع .. وكان ذلك إلزاماً لمصر بالتخلي عن الطريقة الاسلامية ، ومجاراة الحضارة الغربية إلى أقصى حد ممكن .. كما يصرح طه حسين في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)[1] .

مخططات ممسوخة

ثم جاءت قمة المحنة في ميدان التعليم خاصة ، وذلك بما أثارته تلك التيارات المسمومة من الشكوك في قيم المنهج الاسلامي ، الذي يقوم على ربط التفكير العلمي كله بحقائق الوحي .. فكان من حصائد ذلك أن وجد المسلمون أنفسهم فجأة أمام مخططات منسوخة ، بل ممسوخة عن المنهاج الغربي المادي !. وأقول : ممسوخة لصدورها عن محض التقليد ، الذي لا يقبل نقاشاً ولا تعديلاً .. بل كثيراً ما يأتي التقليد فيها متأخراً ، إذ يتطور أصله في الغرب، على حين تظل نسخته القديمة عندنا جامدة على ما مر من محاولات ، فيها الصواب الذي حققته التجارب ، وفيها الخطأ الذي زيفته الوقائع !.

ولنشر من ذلك إلى نقطتين اثنتين كمثل لهذا المسخ.. أولاهما ما تتبناه كتب التاريخ التعليمية في بعض ديار المسلمين من القول بأن حركة الفتوح الاسلامية في عهد الخلافة الراشدة

(١) الاتجاهات .. ص ٢١٣ - ٢١٩ ج ٢ .

لم يكن باعثها الرغبة في نشر الدعوة الإلهية ، بل حوافز اقتصادية بحتة ، فهي إذن حركة اغتصاب هدفها الأسمى الحصول على المغانم ولو على أشلاء الشعوب !..

ثانيها : ما تقرره كتب علم الاجتماع في تلك الأقطار ، عن مصادر التفكير الديني وتطوره ، حيث تزعم أن الباعث الأساسي لابتداع الدين ، إنما يعود الى الخوف من القوى المجهولة ، الذي دفع الانسان البدائي الى استرضائها بالعبادة ، متمثلاً إياها في الكثير من المظاهر .. ثم جعل يختصر هذه الآلهة كلما تقدم في سلم الوعي، حتى انتهى بها إلى التوحيد !.

وبقليل من التفكير في الأولى ندرك أنها أحكام دخيلة مشبوهة ، مرجعها إلى دسائس المستشرقين ، الذين يريدون تجريد المسلم من تقديس تاريخه ، إذ يشحنون رأسه بالاعتقاد أن أسلافه الأولين لا يَفْضُلون مستعمري الغرب والشرق في أي شيء ، وبالتالي فليس ثمة وحي ولا نُبوّة .. بل هي المطامع المسعورة التي تستغل اسمَ الدين لتحقيق شهواتها !.

وهو هو نفسه التفسير المادي لحركات التاريخ في فلسفة الغرب والشرق على السواء !.

أما الثانية فهي نتيجة لازمة للداروينية التي تزعم الانسان حيواناً مترقياً ، تدفعه التجارب في سلم النمو العضوي والعقلي ، فلا سلطان عليه لقوة خارج هذه التجارب ،

وبالتالي فلا هدفية ولا غائية وراء وجوده المحدود ، بل ليس وجوده هذا سوى عبث في عبث ! ..

ولا حاجة إلى التذكير بأن الايمان بهذه المزاعم كفر بواح في حكم الاسلام ، لأنها منصبة على انكار الرسالة الإلهية التي يحدد بها الله تبارك وتعالى وظيفة نبيه وأتباعه إلى يوم القيامة ، ضمن هذا المبدأ الخالد : (قل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني ..) .

ومنصبة كذلك على إنكار خبر الوحي عن إيجاد الجنس الانساني في قوله تعالى للملائكة : (إني خالقٌ بشراً من طين، فإذا سوّيتُه ونفخت فيه من روحي فقَعوا له ساجدين) . وفي قول المعصوم ﷺ : (خلَق الله آدمَ على صورته طولهُ ستون ذراعاً .. [1]) أي على شكله التام لأول مرة ، لم يعتره أي تغيير ، إلا ما كان من تضاؤل جسمه بعد امتداد.. وقد سبق القول أننا لا نحصر ولكن نمثل .. ثم نتساءل : أي جيل هذا الجيل الضائع الذي ينشأ على مثل هذه النظريات الهدامة في ديار الاسلام ؟ ..

إنه الجيل الحائر الذي تتنازعه عوامل الايمان والكفر .. فهو بحاجة إلى الكثير من التفتح الروحي والوعي الاسلامي ،

---

١ – من حديث مطول رواه الشيخان – أنظر (جمع الفوائد) رقم ٦٠٩ .

لكي يعرف كيف يعطل عمل هذه الألغام ! .. ولكن .. من أين يأتيه هذا الوعي وذلك التفتح ؟: . وهو لم يزوّد من دينه إلا بالمبادىء القليلة ، التي لا تحل مشكلاً ، ولا تسعفه بأي تفسير لسنن الحياة .. ولم يبق منها في ذهنه سوى أطياف بعيدةٍ بعيدةٍ يلفها الغموض ! ..

والأشد خطراً من ذلك كله ، والأبعد هولاً أن هذا الجيل الحائر الضائع الجاهل لدينه ولمفاهيمه الصحيحة العاصمة هو الذي يحكم اليوم عالمنا الاسلامي .. إلا من رحمه الله ! ..

وإذا كانت السلطات الحاكمة خالية الذهن من حقائق الوحي .. فأي قوة تعصمها من الوقوع في حبائل الشيوعية الملحدة ، ولقيطتها الاشتراكية المدمرة لكل حصانة خلقية وروحية !؟

ولا أرى ضرورة للردّ على هذا السؤال لأن في وسع كل مسلم أن يجيب عليه ، من خلال الأرزاء التي تعانيها كثرة الشعوب الاسلامية ، في كنف هذه الظلمة الطاخية ...

هل ثمة من يجهل أن شعوباً اسلامية مهيضة الجناح يفرض عليها أن تقرأ في صحف بعض حكوماتها الرسمية (ان الله والأنبياء دمى محنطة يجب تحويلها إلى متحف التاريخ !!) ..

وهل بين مفكري المسلمين من يجهل أن وزارة المعارف في بعض ديار الاسلام ، أصبحت تسرح خيرة مدرساتها خلقاً

وكفاءة ، لسبب واحد هو أنهن ملتزمات بأدب الاسلام في ثيابهن وسلوكهن ! ..

وهل بين المهتمين بشئون المسلمين من يجهل أن وزيراً للمعارف في ذلك البلد ، قد أعلن في ندوة تلفزيونية ، شهدها عشرات الألوف على الأقل (... أن حكومته ستضرب بشدة على أيدي أولئك المدرسين والمدرسات الذين يُخَوِّفون الطلاب بجهنم وبمسئولياتهم في الآخرة أمام الله ! ..) .

وهل في العالم الاسلامي كله من لا يعلم أن حكماً اشتراكياً في بعض بقاع الاسلام يصادر حرية الآلاف من المؤمنين والمؤمنات ، ويسوق أعاظم رجال الفكر الاسلامي إلى أعواد المشانق .. لغير ذنب سوى أنهم يُذكّرون المسلمين بمعاني دينهم، وما يراد به في ظل الأنظمة الجاهلية !. وأخيراً وبدلاً من أن ترده الهزيمة المذلة إلى الاعتصام بحبل الله راح يعلن في كل مناسبة أن البلاد لا تزال بخير ما بقي لها حكمها الاشتراكي اللقيط ، وألّا غرض للعدو سوى تحطيم ذلك النظام السياسي والقائمين عليه !.

هذا غيض من فيض من وقائع لا يعذر مسلم بجهلها ، لأنها أبرز من أن تخفى ، فضلاً عن أن تنكر.. وما كانت لتستحق التحذير ، لولا أنها عناصر أساسية في مناهج تعليمية وتوجيهية رسمية ، تتعهدها اليوم حكومات تفرض نفسها بقوة التجهيل

والسلاح على شعوب ، أول واجباتها في هذه الدنيا إبلاغ العالم رسالة الله ، ومواصلةُ طريقِ المرسَلين لإنقاذ الجنس البشري من مخالب الطغيان والآثام !..

في رسالة وردت إليّ من طالب مؤمن يتلقى دراسته في احدى العواصم الأوروبية ، يحدثني عن بعض زملائه من أبناء المسلمين فيقول : (ان هؤلاء يلاحِقون بالاستهزاء والاتهاماتِ المختلقةِ كل من يُصلّي منهم أو يصوم .. وكثيراً ما نسمعهم يشاركون أساتيذهم الكفرة في عيب الاسلام وتنقصه ، حتى أنهم لا يكتمون ألمهم من الانتساب إليه !..)

وفي رسالة أخرى من طالب مؤمن يتلقى علومه في أميركا يقول لشقيقته المُدَرِّسة : (نشرت مجلة تايم مقالة عن الشرق الأوسط .. تعلن فيها : (ان على العرب إذا أرادوا التقدم أن يتركوا الاسلام ، ويتركوا اللغة العربية ، ويجاروا الغرب في كل شيء ..!)

وذات يوم جاءني طالب في سورية بمجلة لبنانية ، فقال وهو يشير إلى مقالة مترجمة عن مجلة (كويك) الألمانية ، تقول فيها كاتبتها الايطالية (أدريانا فالاش) ما نصه : (المرأة المسلمة تعيش وراء ملاءة سميكة كأنها وراء القضبان الحديدية في السجن .. وفي البلاد العربية تموت النساء بلا حساب .. انهن حَيّات بلا فائدة ، فليس لهن اسم ولا هُوية !..)

وكان موضوع درسنا يومئذ هو الشعر الاجتماعي في الأدب المعاصر ، وكان بين أيدينا كلمة لمؤلفي كتاب الأدب عند التمهيد لاحدى القصائد في شأن المرأة وحجابها تقول : (.. كان الحجاب سجناً رهيباً حكم الجهل والتعصب على المرأة أن تقضي حياتها في ظلمته ، فعاشت محرومة من حقوقها الانسانية ..)

ولا أريد أن أسترسل في عرض هذه النماذج، ولكن أحب أن أتساءل ، ولعلكم تتساءلون معي أيضاً : (هذا التلاقي بين دسائس الغربيين هذه ، وبين انحرافات أبنائنا تلك ، في الغرب وفي الوطن الاسلامي ، هل يمكن رده إلى حكم الصدفة ؟ .. أو أنه مخطط مدروس وضع في ظلام المؤامرات على الاسلام ، ثم عهد بتنفيذه إلى هذا الجيل المنحرف من أبناء المسلمين أنفسهم ؟ ..

وإذا كانت الدلائل الماثلة كلها تدفعنا دفعاً إلى اليقين بوجود هذا التخطيط الجهنمي ، فماذا نتوقع له من عواقب ، ونحن واثقون كل الثقة أن هؤلاء المسخرين لتنفيذه من أبناء المسلمين هم الذين سيقبضون ، شئنا أو أبينا ، على أزِمَّةِ التوجيه والحكم في بلاد الاسلام ! ..

لا أظن عاقلاً مدركاً لهذه المخاطر ، ينتظر لهذه المقدمات من نتائج أقلّ من زيادة المحنة على الاسلام ، وإطماع المتآمرين بالقضاء على بقية حصونه والعياذ بالله ..

تجربة خطيرة :

أجل انه لواقع رهيب نبسطه بالحجاز ، لنذكر به المسلمين من على منبر الرابطة ، وفي منطلق الاسلام الأول .. فنحن معه كالطبيب يشخص الداء كما هو ، ويكشف لأهل المريض ما فيه ، ليعلموا ما يجب عليهم نحوه ..

ولعل كثيرين يقولون : لقد أدركنا هذا ولمسناه ، واتخذنا له من العلاج ما لا نملك سواه ، وهو إقامة التعليم الديني مقابل تلك التيارات الغازية .. وهو تعليم نأمل أن يقدم للناس الحصانة الكافية من كل فكر مسموم ، وينقذ المجتمع الاسلامي أخيراً من كل اتجاه ملغوم .. » .

وهو جواب سليم وعمل كريم .. لأن ادراك الحقائق الشرعية هو سبيلنا الوحيدة لتعرية الباطل ، وتحصين القلوب من شروره .. ولكن الموضوع هو تعيين الحدود الواضحة لهذا التعليم الديني .. أين يبدأ وأين ينتهي ؟ .. وما مفرداته ، وما علاقته بما حولنا وما تحتنا وما فوقنا من أشياء هذا الكون ! ..

قبل أربعين سنة على التحديد ، وعندما حاول الاستعمار الفرنسي ترسيخ أقدامه في سورية ، كان الناس يشاهدون ظاهرة نشاط غريبة ، إذ يرون مديري المدارس الابتدائية ، وهم فرنسيون ، يلاحقون الأطفال في الأزقة والشوارع ،

ليحشدوهم في صفوفها بمختلف الوسائل .. وما كنا لنملك تفسيراً صحيحاً لهذه الغيرة سوى أن القوم يريدون محو الأمية ، وتزويد الجيل الجديد بالمعرفة !.. وحاولوا إغلاق الكتاتيب ، التي تحصر مهمتها عادة في تلاوة القرآن وتحفيظه ، وتلقين المبادىء الفقهية الضرورية .. ولم يدّخروا وسعاً في اجتذاب شيوخ تلك الكتاتيب إلى جانبهم ، إذ ضموهم إلى مَلاك التعليم في هاتيك المدارس ، ثم لم ندرك غرضهم من ذلك الجهد إلا بعد تخرج ذلك الجيل ، الذي فتحت له أبواب الوظائف ، ومواصلةِ التعليم الجامعي ، الذي كان هدفُه الرئيسى تخريجَ أيدٍ كاتبة وحاسبة ، تحسن خدمة مصالح الاستعمار ! .. وما هي إلا جولة أخرى حتى رأينا أبناء الكتاتيب والمدارس الدينية في مؤخرة القافلة ، وقد سدت في وجوههم منافذ الرزق ، فلا حق لهم في أية وظيفة حكومية ، اللهم إلا أن يكونوا خطباء مساجد ، أو مدرسي أوقاف ، يلقون دروسهم على حلقات العامة ، في حدود الصلاة والصوم وما يلحق بهما من الموجبات والمفسدات !. حتى هذه الخدمات الدينية أصبحت موقوفة على المتزلفين ، الذين يحسنون ارضاء من فوقهم من موظفي الأوقاف ، الذين كثيراً ما يُتَعَمّد اختيارهم من المعروفين بالانحراف ! . وكانت هذه تجربةً خطيرة جَمّدَتْ الإقبال على التعليم الديني ، فكادت تحصره أخيراً في نطاق العَجَزَةِ ، الذين لا يصلحون

لأي عمل !.. حتى ورثة البيوت العلميـــة قد جرفهم هذا البلاء ، فهم يصرفون أبناءهم عن تعليم الشريعـة إلى أيٍّ من علوم العصر ، فإذا ابن الفقيـــه أخيراً مهندس أو طبيب أو مدرّس علوم .. أو أيُّ شيء .. إلا أن يكون فقيهاً أو إماماً أو خطيبـــاً !.. وحجتهم في ذلك أنهم لا يريدون لأبنائهم أن يكونوا عالة على المجتمع ، وأن عليهم أن يؤمنوا لهم الحظ الأوفر من نعيم الدنيـــا !. ولن يتاح لهم ذلك في ميدان الدراسة الشرعية ، بعد أن أقام الاستعمار وخلفـــاؤه مصالح الناس على أساس من التعليم العصري دون غيره ، فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام لهذا الواقع ، كيفما كانت عواقبه !. ولولا بقية من الارادة الجبـــارة في صدور بعض المؤمنين ، مكنتهم من مقاومـة ذلك الاغراء ، فظلوا معتصمين بالمسلك الشرعي ، لأقفر معظم العـــالم الاسلامي اليوم من الفقهاء والمحدثين ، والعـــاملين لاستعادة الوجود الاسلامي في أرض الاسلام !.

وإلى هؤلاء الجِلة من رجال الاسلام يرجع الفضل في استبقاء التعليم الشرعي حتى اليوم ، على الرغم من كثرة المثبطـات ، ومحاولة السلطات تضييق أبواب الحياة في وجوه طالبيه ..

معركة !..

بقي أن نتصور أبعاد المعركة التي أحدثها هـــذا التحاكُ

بين فريقي الثقافتين : المستغربة التي احتكرت سبل الرزق والحكم والمناصب .. والمحافظة التي استهدفت إبقاء التراث الأسلامي ، دون نظر إلى المنافع المادية العابرة !..

والواقع أن ادراك المفكر لجوانب هذا الصراع لن يتطلب كبير ذكاء ، إذ حَسْبُه أن يتتبع حياة وسلوك كل من الفريقين ، حتى يكون على بصيرة من مدى الفجوة بينهما ، وخطرِ الخلاف المؤسف بل المخيف المحدق بهما !..

ان أول ما يلمسه الباحث في أمر الفريقين هو فقدان الثقة ، فكل من الجانبين يسخر من الآخر ، ويعده خطراً على الحياة والمجتمع ، ولا يصدق بأنه يصلح لشيء ..

ومن طبائع الأشياء أن تنتج الشدة الشدة ، وهكذا كان واقع التباعد بين أصحاب المنهجين ، فبدلاً من أن يعرفَ كلٌّ ما عندَ الآخرِ من الخير فينتفعَ به ، حتى يتلاقيا على الحق ، الذي هو بُغية أهل العلم .. انقلب الأمر إلى الضد ، فازداد كل منهما جفوةً للآخر ، حتى انتهى إلى حد التعصب !.

وقد ضاعف اتساع شقة هذا الخلاف ذلك الاندفاع المتهور ، في تقليد الأفكار والحياة الغربية ، الذي يتجلى في سلوك المبتعَثين للدراسة في جامعات الغرب ، إذ يعودون في الغالب مُحمَّلين بجراثيم الأخلاق الغربية ، مكرهين أو طائعين .. إلا من رحم الله وقليل ما هم !.

وبهذا وذاك تزداد الزاويةُ انفراجاً بين الجيلين ، لا من حيث الثقافةُ فقط ، بل من حيث أُساليب الحياة أيضاً !.

ولا ننكر أن هنالك رجالاً من الفريقين قد أدركوا هول الهوة التي ينساق إليها المجتمع الاسلامي بدوافع هذا الواقع ، فراحوا يتوسطون لتقريب الشقة ، وتذكير الدينيين بما يمكن أن يجدوه في المنهج الآخر من عناصر صالحة لخدمة الاسلام في هذا العصر ، وتنبيه المدنيين لِما حُرموه من فضائلَ لا سبيل إليها إلا في نطاق الهداية الالهية .

ولكن على الرغم من ذلك ظل الطابع الغالب على الفريقين هو النفورَ والتناكرَ .. حتى لنسمعُ من شباب الجيل المستغرب من يقول لنا : « إني مستعد لقراءة أي شيء إلا ما يتعلق بالدين !. » وحتى لنسمع من السادة المشايخ من يقول لطلابه : حذار ثم حذار من كل مجلة وكل كتاب خارجَ حدود مقرراتِكم !. وحتى ليقولُ أحد هؤلاء السادة لأحد طلابه ، وقد رآه يحمل كتاباً في التقويم : « لن أكلمك بعد اليوم حتى تهجر هذا الكتاب !.. »

وطبيعي أن موقفاً كهذا لم يؤد أية خدمة للاسلام ، إذا لم نقل انه كان ذا أثر كبير في نفرة الشباب الجديد منه ، إذ اعتبروا هؤلاء المشايخَ صورةً من الدين الذي يدعون إليه !.

فهو في زعمهم دين بائس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث، يتنكر لكل تقدم يحرزه الانسان في ظل الحضارة الحديثة، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الشك!..

ثم جاءت النتائج الرهيبة التي أعقبت هذا الصراع، إذ انصرف أحدُ الجيلين عن الحياة بما فيها، ليرددَ أقوال السابقين، ويحذر مَن حوله مما يسميه (أباطيل) اللاحقين!. وقد انقطع الآخر عن الدين كله، ليتولى شئون الدنيا كلّها، فيديرَها على أساس من الأفكار المجتلَبة، التي لا تتصل بالاسلام من قريب أو بعيد!.

وما دامت أزمة السلطان في قبضة تلامذة المنهج الغربي، وما دامت الظروف العامة تعمل لمصلحتهم، فلا سبيل إلى تجاهل الأخطار الكبيرة، التي تهدد السالكين في الطريق الآخر، وتهدد مِن ورائهم الحياةَ الاسلامية كلّها..

مناهج ومناهج:

لقد استعد كل من الفريقين للدفاع عن وجوده، ففي جانب معاهد وكليات ذات برامج دراسية هدفها تكوين الجيل البصير بدينه، الصالح لحياطته تجاه التيارات الغربية.. ولكنها توشك أن تخلو من أي المواد التي تجعل الفرد على علم

بما يدور حوله من مشاكل المدنيـــة ، والتي تؤهله في النهاية للاسهام في إدارة شئون بلده ، إلا في حدود لا تتجاوز نطاق القضاء والتعليم الديني .. إلا قليلاً .

وهناك معاهد وكليات وجامعات أخرى ، لهـا مناهجها الخاصة أيضاً ، ولكنها لا تتلاقى مع تلك إلا في المراحـــل الأولى ، لتأخذ سبيلها إلى الآفاق البعيدة .. وكما تخلت تلك عن الاهتمام بمشاكل الحياة الدنيا، خلت هذه من العناية بموضوع الحياة الأخرى !. غير أنهـا عُنيت بكل ما من شأنه تأهيلُ الفرد للمشاركة في شئون الدولة ، والإلمامُ بسيرة الحياة البشرية من حولِه ..

والمصير الطبيعي لهذا التناقض أن تزداد انعزاليةُ الدينِ وأهلِه ، بمقدار ما تمتد سلطة الاتجـــاه المقابل ، حتى ينتهيَ الأمر أخيراً إلى ما نلمسه في بعض مواطن المسلمـــين ، التي سبقت إلى هذه التجربة، وأعانتها الأحداث العالمية على كشف أقنعتها ، لتظهر على حقيقتها المعاديةِ للاسلام !.. وإذا صحت الحكمـة القائلـة : « اعتبر بمن تَقَدَّمك ، ولا تكنْ عبرة لمن يُعقُبك » كان على المفكرين ، من ذوي الغيرة على مستقبل الاسلام ، أن يفتشوا عن الوسائل التي تمكنهم من تضييق مساحة الخطر الزاحف ، فلا يدعو للسيل أن يتدفق على هواه ، حتى يأتي على ما تبقى من معاقل الأمل ..

ولا شك أن أفضل علاج لذلك ، ليس قبولَ الواقع كما هو ، ولا الانسحابَ من معركة الدفــاع عن الحق ، وليس كذلك بإبقاء المناهج الدينية معزولةً عن مشاكل المدنيــة .. لأن انتصار الجمود على التجديد، أمر مناف لسنة الله في حركة العمران البشري .. ولا يعني كذلك الاقبالَ على كل مُحْدَثٍ من الأمور إقبال حاطب الليل، لا يفرق بين العصا والثعبان.. فذلك أقرب السبل إلى التدمير المُبير . وإنمـا يعني تجديد الفكر الديني ، حتى يعلم صاحبُه أن دينَ الله هو ضابط الحياة البشرية ، ونظامُها الأمثل ، فلا يجوزُ قصرُه على جانب دون جانب، ولا يجوز حرمانُ أهله من الإلمام بكل ما يجدُّ حولهم من علم ذي أثر نافع في توجيه المجتمع !.

وأسمح لنفسي هنا أن أستعير كلمة مؤلف (أضواء البيان) شيخنا العلامة « محمد الأمين الشنقيطي » حفظه الله وبارك في حياته ، إذ قال لنـا في معرض حديث له عن واقع المسلمين والعالمِ الحديث : (لقد قَصَرَ المسلمون تفكيرهم على شئون الروح فأفلتت من أيديهم أزمــة المادة .. ولا سبيل لهم إلى العزة والغلب إلا بالجمع بين القوتين ..)

ومن بيان (اتحاد جمعيات الطلاب الاسلامية في بريطانيا) الموجه إلى مؤتمر وزراء التربيــة والتعليم العرب ، المنعقد في

الكويت قبل عام ، أقتبس كذلك الفقرة التالية : « إن أولى مهام المؤتمر تعديل نظام التربية والتعليم الذي لا يزال خاضعاً للمناهج الغربيــة .. وهو الذي لا يخرج إلا مقلدين عَجَزَةً مستعبَدي الفكر .. »

فأولى الكلمتين صفوة فهم عميق لكتاب الله ، الذي وقف العلامة الشنقيطي نفسه على خدمته وفقهــه ، فهو ينظر إلى وقائع الحياة والأمم بنورٍ منه .. وثانيتهما خلاصةُ تجاربِ عقولٍ شابة تدرس عن كثب واقع الغرب ، وتلاحظ تجاربه ، وتلمس تخبطه ، الذي لا يلم به إلا الذين هم على شاكلة هؤلاء الطلاب .. ممن عصمهم الله ، وآتاهم من سلامة الفطرة مـا صانهم من السقوط في تلك الأوباء ..

وبين الكلمتين هاتين تلاقٍ على الحقيقة ، التي طالمــا تجاهلناها من قبل ، فساقنا تجاهلهــا إلى أسوإ العواقب .. على أن السبيل الوحيدة لتحقيق مضونها هي الاقتنــاعُ أو لا بوجود المشكلة ، وخطرِ ها الحــاصل والمتوقّع ، ثم العملُ الجِدّيّ على توحيد مناهج التعليم على أساس من روح الاسلام ، الذي لا يعترف بأن ثمة مــادة يمكن أن تؤلّف أو تدرّس بمعزلٍ عن الارتباط بالمعاني الإلهية .. التي تجعل من دراسة النفس والكون والحياة أروع مجال لاستجلاء عظمــة الله ، ولاضاءة القلوب بمحبته وخشيته سبحانه .. ولا جرم ان كل

تأخيرٍ في موعد هذا التوحيد ، وكلُّ تهاون في هذه المتطلبات ، مُفضٍ إلى إضاعة الفرص التي لا تُعوَّض ..

وأخيراً :

أجل أيها الاخوة .. إن تعديل المناهج الدراسية ، وتوحيدها ، بعد تركيزها على طريق الاسلام الصحيح الذي هو رسالتنا إلى العالمين ، هما أكبر الواجبات التي تواجه المسئولين عن الأجيال الاسلامية في هذه الأيام .. لأننا بذلك نُطهِّر وجودنا من الصراع الذي نعانيه بسبب اختلاف العقليتين .. ويومئذٍ لن نجد الزائغ الذي يهزأ بمقدساتنا ، ويتنكر لفضائلنا ، ويسخر من علمائنا.. ولن نواجه المُلَفِّق الذي يرى كل واجبه إقناع غير المسلمين بأن الاسلام مستعد لتقبل أفكارهم أياً كانت ! . ولن يكون بيننا الاعتزاليون الذين رفضوا كل الخِبرات البشريةِ دون تدقيق ، ثم حاولوا حبس الفكر الاسلامي في نطاق مفاهيمهم الخاصة .. وقد نسوا التوجيه النبوي الحكيم القائل : (إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها..)[1]..

---

١ - الجامع الصغير ورمز له بالصحة . رواه أبو داود والحاكم والبيقهي عن أبي هريرة ، وصححه العراقي وغيره .

ولكن آمالنا هذه ستظل أحلاماً جميلة تنتظر السلطة التي تتجرد لتحقيقها ... وأين هي هذه السلطـة المرجوّة إذا لم تكن هنا ، في هذه الأرض التي ربط الله بهـا قلوب مئات الملايين من المسلمين إلى يوم الدين ! .

لقد أوغل معظم حكام المسلمين في البعد عن خط الاسلام ، حتى باتت كل محاولةٍ لتصحيح سلوكهم في حكم المستحيلات .. فلم يبق للمسلمين إذن سوى الحكومة التي تقدمت راضيـة للنهوض بأمانة الاسلام ، فاشرأبت أعنـاقهم من مشارق الأرض ومغاربها ، تتطلع إلى الخطوات الحكيمة التي تتخذها، لابراز حقائق هذا الدين ، بعد أن تكاثفت من حوله الظلمات، فحجبت الكثير من بهائه وضيائه .. والله هو المسئول أن يوفقنا جميعاً إلى التزام شريعته ، وإعلاء كلمته ، والحمد لله رب العالمين .

●

الإسلام يستنفر الأقلام

الحمد لله الذي من التراب أبدع الانسان ، فجعله في أحسن تقويم ، وزوده بالعقل والخيال والوجدان ، ثم أطلق لسانه بالتعبير عن كل دقيق وجليل ، فكانت الكلمة أكمل وسائل التبيان .. ثم زاد الكلمة شرفاً فأنزل بها هَدْيَه على توالي الأزمان ، ثم ميز الكلمة العربية بأسمى منازل الكرامة ، عندما اختارها لِوحيه الأعلى كتاباً تقشعر له القلوب والأبدان ، فخلَدَتْ به ما استمر الجديدان ، قد احتل من البلاغة قمةَ القمم ، فهو المثل الأعلى لكل بيان .. يَهَبُ كل يوم جديداً من العرفان ، وتأخذ منه العقول ما بلغت طاقتها من المعان ، دون أن يعتريه جمود أو نقصان ..

فتبارك الذي نزّل أحسن الحديث ، وجعله نوراً يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام ، وصلاة الله وسلامه على أعرب العرب ، وأبين المبينين ، وأبلغ الأولين والآخرين ، محمد

صفوته من صفوته ، ودليله إلى جنته ، والإمام الذي ارتضاه للعالمين ، فلا عصمة إلا بمتابعته ، ولا عزة إلا بقيادته ، ولا استقرار إلا في ظل شريعته .. وعلى آله وصحبه مصابيح الدجى وأيمة الهدى ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد فإن نظرة واعية إلى مخطط الكرة الأرضية أيها السادة ترينا ما يرجف القلوب من ألوان الكروب التي تحيط بعالمنا عامة ، وبإسلامنا خاصة .. حروب لم تنقطع لحظة منذ مطلع هذا القرن وإن كانت متفاوتة في المساحة والحجم، حتى يكون منها العام الذي يشمل الدنيا ، والخاص الذي يحترق به جانب ، ويهدد باللهب سائر الجوانب .. ثم لا تكون الهدنة بين حرب عامة ، وأخرى مثلها ، إلا فرصة لاستعداد جديد ، يتسابق فيه شياطين الأنس إلى الاستكثار من وسائل الدمار ، وتخترع فيه وسائل الاغراء والتضليل من أولئك وهؤلاء ، حتى تطيش الحلوم ، وتفسد الفهوم ، فلا يستبين الناس الطريق السليم ، إلا من رحم الله ، واستطاع أن يحتفظ بضوابط العقل بعيدة عن سوح الدعايات المسمومة ..

وهكذا شحن الفضاء بسموم الأباطيل ، يتقاذفها الشرق والغرب ، مشبعة بكل ما اكتشفه العقل من المخدرات النفسية ، والمضللات الفكرية . وإذ كانت الشعوب ، التي هي موضع النزاع بين المعسكرين ، غير مزودة بأية حصانة روحية

ضد هذه السموم المزوقة ، فسرعان ما سقطت فريسة لهذا الجاني أو ذاك .. وبذلك امتدت رقعة الحرب الباردة حتى شملت معظم بقاع العالم ..

على أن ذروة الرزية في هذه الظلمات هي أن يحتجب نور السماء عن ساحة الهرج ، فتخلو لمردة الانس والجن ، يدفعون الناس إلى الهاوية ، فيضرب الأخ أخاه ، والابن أباه ، وهم لا يعلمون ماذا يعملون !

أجل إن الاسلام وهو الشعاع الأخير من أضواء السماء قد أقيمت السدود في وجهه حتى في أوطانه ، فعطل بذلك عن أداء مهمته في إرشاد الضالين ، وإيضاح الطريق الأمين .. بل لقد اعتبر مجرد التذكير به جريمة لا يستحق أصحابها إلا التعذيب والتشهير ، والقذف بكل منكر وحقير !.

تلك حقيقة لا مجال لتجاهلها .. ولكن .. أليس من واجبنا نحن العارفين لهذه الحقيقة أن نتساءل عما يمكن أن نعمله لتعريفها للجاهلين والمضللين !!

كثيرون الذين يلقون على أنفسهم هذا التساؤل .. ولكن ما أقلّ الذين يعملون بما يوجبه !. وأقلُّ منهم الذين يملكون الوسائل التي تمكنهم من تحقيق هذا الواجب .. مع انهم جميعاً يعلمون أن استمرار الانحراف بالمسلمين مؤدٍّ بهم كل لحظةٍ إلى البعد عن مركز شخصيتهم ومقوماتهم ، حتى يأتي اليوم الذي

يجد فيـــه هؤلاء أنفسهم غرباء في أمتهم لا أمل لهم بأي إصلاح !..

وإذا كان العمل لتلافي تلك النهاية الوبيلة ضرورياً ، فليس على المفكرين إلا أن يخططوا لذلك العمل ، حتى يعرفوا بأيّ شيء يبدءون ، وأيّ شيء يستهدفون .

الهدف هو الاسلام

إن هدف العمل واضح لا ينبغي أن يُختلفَ عليه أصلاً ، لأنه محدَّد في صلب الدستور الاسلامي، وذلك في قوله تعالى: (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني) فالله يأمر نبيه ، صلوات الله عليه ، أن يعيّن للعالم هدفَه وهدفَ أتباعه حتى تقوم الساعـة ، وذلك بالدعوة إلى الله بالحجة والمنطق والأسوة الحسنة .

ولكن هذا الهدف الواضح جداً في قلوب أُولي العـلم ، يتطلب إيضاحـــات وتفصيلاتٍ دائبةً وواسعة ، بالنسبة لإنصاف المثقفين ومن يليهم ، وهذا أمر لا مناص منـــه لاشراب الأفراد الماديين حقائقَ الاسلام .. ولتركيز مقوماته في نفوسهم ، وفي عاداتهم ، وفي تصوراتهم ، وفي طريقـــة نظرهم إلى الحياة .. وبالتالي لحماية قلوبهم وأفكارهم من التلوث بأوبئة الجاهلية التي تمليها الشياطين على أقـلام الكافرين من شرقيين وغربيين ، قدماء ومحدَثين !. وطبيعي ألّا سبيل إلى

تركيز هذه الحقـــائق إلا عن طريق الأدب الاسلامي ، والأديب الاسلامي ..

الاسلام والأدب

والاسلام أيها السادة هجرة عقلية وروحية ، من ظلمــات الجاهلية ، بكل ما تنطوي عليه من حيرة وقلق وضياع إلى رحاب الهداية المضيئة ، بكل ما يحمله هذا التعبير من معاني الاطمئنان والتفاعل مع الخير والحق ..

ولا أروع في وصف هــذه الهجرة من قول الله تبــارك وتعــالى يحدد مهمــة نبيه : (.. هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتـــاب والحكمة ، وإن كانوا من قبلُ لفي ضــلال مبين) . ولقــد تألقت أنوار هذه الهجرة في كل أفق من حياة المسلمين الأولين عرباً وأعاجم . ولا مِرية في أنَّ أدَب صدر الاسلام وما سبقه كان أبرز معارض هذا التبدل الجذريّ .

وإذا كان وقت المحاضرة لا يتسع للإكثار من النماذج ، فلا أقلّ من أن نجتزىء ببعضها ، ورب قليلٍ يُغني عن الكثير..

بين الجاهلية والاسلام

قصة وفد تميم الــتي كانت من أسبــاب النزول لِسورةِ الحجرات معروفة .. لقد تلقى زعماء تميم خبر الرسالة المحمدية

بتصور الجاهلية ، الذي لا يعدو نطاق المفاخر ، فتحركت نخوتهم وأخذتهم العزة بالإثم ، ثم جاؤوا بخطيبهم وشاعرهم ليقارعوا بزعمهم الأبهة بالأبهة ، ولم ينتظروا حتى يخرج إليهم رسول الله ، بل ذهبوا ينادونه من وراء الحجرات ، في قحة الأجلاف الذين لا يقيمون اعتباراً للموازين الاجتماعية ..

وأعلنوا للرسول رغبتهم في مفاخرته !. وبروح الحكيم في معالجة صغار الأطفال أجابهم إلى مطلبهم ، وترك لهم أن يجفخوا ما شاؤوا ، حتى إذا شبع خطيبهم من الثرثرة ، وشاعرهم من الجعجعة ، أمر (ص) ثابت بن قيس فأخرس خطيبهم، ودعا بشاعر الاسلام حسان ، فنقض قصيدة شاعرهم بما أفحمه .. ثم انتهت المعركة بانتصار النور الذي أضاء جوانحهم ، فأدركوا لفورهم ان الأمر ليس أمر زعامة أو منافرة ، بل هو فوق ذلك كله .. انه أمر النبوة المنقذة لهم من تلك المساخر ، التي طالما أغرقت الجزيرة بدماء الأبرياء !.

ولنتأمل الآن في بعض ما قال كل من الشاعرين ، قال الزبرقان شاعر تميم :

نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تُقسم الرِّبَعُ
وكم قسرنا من الأحياء كلهم عند النهاب، وفضل العز يُتبعُ
ونحن يُطعِمُ عند القحط مُطعِمُنا من الشواء إذا لم يُؤنَسِ القَزَعُ
ثم ترى الناس تأتينا سراتهم من كل أرض هُوِيّاً ثم نصطنعُ

وكان في ردّ حسان هذه الأبيات :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته
تقوى الإله، وبالأمر الذي شرعوا
...قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم
فما ونى نصرهم عنه ولا نزعوا
...أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
إذا تفاوتت الاهواءُ والشيعُ

وفي كل من النصّيْن صورة تامة للجو النفسي الذي وراءه. أما أبيات الزبرقان فلغو تمليه عنجهية البادية، التي لا تستطيع تصور الحياة أكثر من سباق على السمعة، فهو يريد – بلغة اليوم – اختطاف زمام المبادرة لارهاب المنافس بهجمة من الحرب الباردة !.. انهم كرام يطعمون أيام الجدب أطايب اللحم، وفيهم القوة التي تفرض سلطانهم على الناس، فيأتونهم خاضعين باذلين !. والويل لمن يجرؤ على تكذيب هذه المزاعم، فإن وراء ذلك الفتنة التي تستيقظ ثم لا تنام !. وهي إلى ذلك معان مَكرورة نقرؤها في كل نص جاهلي .. ولو

أعطيناه حقه من التقويم لما نال أكثر من ابتسامة ممزوجة بالأسى ، لهذه النفوس التي تستهلك طاقاتها في ما لا طائل تحته ، ولا يتجاوز معظمه دائرة الحماقات !.

والآن لننعم النظر في معاني حسان .. كان عليه أن لا يشتط عن الموضوع .. ان القوم يفخرون ويتعالون فوق البشر جميعاً ، وكل حجتهم في ذلك طعام وقوة .. فليطلع عليهم بفخر .. ولكن من نوع لم يعرفوه ولم يتصوروه :

ان أصحاب رسول الله هم من البشر بمنزلة ذوائب الرؤوس، وقد جاءهم هذا الفضل من خدمتهم للدعوة الربانية، التي هي مهوى القلوب الكريمة المصفاة من كل سوء .. وليس معنى هذا ان في قوتهم مغمزاً. هيهات!. انهم مساعير الحروب، ينزلون الذل بمن عاداهم ، ويوفرون الكرامة لمن ناصرهم .. ولكن شرفهم الأعلى هو انقيادهم لداعي السماء في الهدى والبر ، وتفانيهم في إنفاذ أمره .. وإذا كان الناس عبيد الأهواء ، تمزقهم شيعا وتفرقهم أيدي سبا ، فقد رفعهم إيمانهم على عبودية الأهواء ، فهم صف واحد حول قائدهم المعصوم من سلطان الأهواء ، المؤيد بجنود السماء !.

والفرق بين النصين لا تخطئه أذن واعية ، ولا يفوت نفساً صافية ، فإذا كان الأول يضعنا أمام رقعة محدودة من الأرض ولون خاص من النفوس ، فالثاني يطل بنا على آفاق وراءها

آفاق ، لا يحدها لون ، ولا تقتصر على نوع ، وإنما هي الحياة في معناها الإيماني ، تربط بين أطراف الكون ، وتؤلف في إنسجام عجيب بين الدنيا والآخرة !.

ولا عجب.. انها البصيرة الجديدة فَجَّر الاسلام أضواءها في أعماق القلب العربي ، فهو بها يرى ما لا يتاح لغيره أن يراه ..

ونظرة أخرى عجلى إلى نصين لشاعر مخضرم واحد ، قالهما في مناسبة واحدة .. انه الحطيئة يستعطف عمر ليخرجه من قَعر المـُظلمةِ التي استحق لزومها بعدوانه على أعراض المسلمين . فمن قوله في الأولى متخلصاً من الوصف التقليدي إلى المدح والاستعطاف :

أمينَ الخليفة بعد الرسول وأوفى قريش جميعاً حبالا
وأطولهم في الندى بسطة وأفضلهم حين عدوا فعالا
فإنك خير من الزبرقان أشد نكالا وخيرٌ نوالا

ولكن لامية الحطيئة هذه لم تلق من عمر التفاتاً ، فكان عليه أن يجرب أسلوباً آخر .. فإذا هو يقول :

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مرخٍ زُغب الحواصل لا ماءولا شجرُ
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر.. عليك سلام الله يا عمر
أنت الإمام الذي من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر !

لم يؤثروك بها إذ قدموك لها   لكن لأنفسهم كانت بك الأثَـر
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم   بين الأباطح تغشاهم بها القرر

وما أسرع ما آتت هـــذه الرائية أكلها !. فإذا عمر يرد للحطيئة حريته ، ثم لا يدعه حتى يزوده بآلاف يشتري بها منه أعراض المسلمين !. فما الذي حدث فغير موقف الفاروق من الشاعر السفيه !.

لا شك اننا واجدون ذلك السر في تصور الشاعر نفسه .. فهو في الأبيات الأولى يسلك إلى غرضه طريق الجاهليـــة ، الذي طالما ذلله بمديحه وهجائه ، فعمر هو ذلك الوفي المفضل على قريش جميعها في سخائه وفعاله .. وهو بطبيعة الحال خير من الزبرقان خصمه الذي شكاه، سواء في القدرة على الانتقام، أو في القدرة على العفو .

فهي هي معاني البداوة ، التي يفتنُّ في نسجها وتفصيلها على قدود ممدوحيه ، من الذين تستهويهم ألقاب القوة والمجـــد ، فيصبون عليه العطاء صباً إعجاباً باطرائه أو تخوفاً من هجائه .. وقد فات أبا مليكة ان عمر الذي طبعته التربية النبوية بمثُلها العليـــا ، هو غير بغيض بن شماس واضرابه من ممدوحيه ومهجويه .. لذلك لم يكن غريباً أن يصدمه الإخفاق الذي لم يعتده من قبل فراح يقلب الأمور حتى اهتدى إلى شخصية عمر ، وأمسك بمفتاح قلبه ..

فهنا ستة أبيات، أربعة منها في وصف أطفاله المنكوبين.. انهم أشبه بالفراخ الزُغب لم يبلغوا سن الطيران ، قد عزلوا عن البشر في جانب من البادية ، خلا من الماء والغذاء، واستقر في مهب الهواء .. وليس بجانبهم راع يعنى بأمرهم ، لأن عائلهم الوحيد قد أُخذ منهم ليزج به في البئر المظلمة .

وفي خلال هذا الوصف الدقيق لمأساة الصغار ، يأتي المدح في بيتين .. ولكنه مدح من نوع جديد أيضاً ، لأنه مرتبط بأصل المأساة ، فعمر إمام المسلمين ، اختاروه لرعايتهم مكان رسول الله وصِديقه، وهم لم يصطفوه لهذه الإمارة حباً به بل حباً بأنفسهم التي لم يروا لخدمتها أصلح منه .. ومعنى ذلك ان واجبه نحو هؤلاء المساكين ينحصر في كلاءتهم ومساعدتهم على الشقاء ، لا مساعدة الشقاء عليهم !.

ولا ننسى القالب الذي صبت فيه هذه المعاني ، فهو لا يسأله عطفاً مجرداً ، بل حقاً تفرضه تقوى الله الذي لا بد سائله عن أمر أطفاله ، الذين سيقاضونه بين يديه على ما أنزل بهم من البلاء !. وما أرهب ذلك الاستفهام العميق الذي بدأ به وصف تلك المأساة : (ماذا تقول لأفراخ !.)

وهكذا يحلق الحطيئة وراء المدى الصغير الذي تنسج فيه الجاهلية معانيها ، لينفذ إلى الآفاق الوضيئة التي أبدعها الاسلام .. فإذا في مقطوعته المحدودة هذه من نفحات الخلود

ما لا نجد بعضه في مجموع منظوماته الجاهليـــة ؛ سواء التي نظمها قبل الاسلام أو بعده !.

ان الكلمة التي صاغ بهـــا الشعراء الجاهليون أفكارهم ومشاعرهم قبل أن تلامس قلوبهم أشعة الوحي ، هي نفسهـا التي صاغ بها الشعراء بعد ذلك معانيهم الاسلامية ، ومع ذلك فالفرق بين النتاجين بعيد كالفرق بين العرض والجوهر .. ولا تفسير لذلك إلا التغيير الجذري الذي تناول به الاسلام هذه النفوس ، فبدل فهمها للحياة ، وكشف غطاء بصائرها ، فإذا هي تستقبل الأحداث بأسلوب لا يستطيع التصور الجاهلي أن يرتفع إليه . ولتوكيد هذه الحقيقة الخطيرة أعرض هذه العبارة المخضرمة ، التي تنطوي على جملة من أدق الدلالات على هذا التغيير الجذري .

في أمثال الجاهلية القديمة قولهم : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) . وهي عبارة رهيبـة تصور واقع البشرية كلما انتكث فتلها فعادت إلى ُمثلها الجاهليه .. انها مادة من قانون الغاب ، الذي يجمع فصائـل الوحوش في جبهـات متناحرة متفانية ، لغرض واحد ، هو الرغبة في تفوق الفصيل ، دون أي اعتبار للحق والعدالة !.

ويأتي رسول الله ، بالهـدى ودين الحق ، فيحطم مبـدأ العدوان هذا ، ليقيم على أنقاضه صرح القانون الرباني ، الذي

يهتف بالمؤمنين دائماً وأبداً : (إعدلوا : هو أقرب للتقوى) ولذلك كان مدعاة للدهشة أن يسمعوا رسول الله ذات يوم يقول : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) . فلا يتمالكون أن يسألوه : (أفرأيت إن كان ظالماً .. كيف أنصره ؟) فلا يلبث أن يأتيهم الجواب النبوي الحكيم : (تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره) .

ان هنا لانقلاباً عجيباً في المفهوم الخلقي ، يستتبع انقلاباً مثله في مهمة الكلمة ، فلم تعد وظيفة الأدب إثارة الفتنة لمجرد التفوق القبلي ، أو الغلو في المحالات التي تسخر البيان للشر ، كما أكد حسان بن ثابت (رض) عندما سئل عن سبب التفاوت بين شعره الجاهلي وشعره الاسلامي .. وإنما استحالت الكلمة في ظل التربية الاسلامية تياراً روحياً يضيء ويحرك ويدفع عجلة الحياة إلى الأعلى !.

وهكذا وفي هذا الاتجاه القويم يمضي الأدب الاسلامي في خدمة الدعوة، حِكَماً على لسان رسول الله ﷺ وخُطباً على أفواه الراشدين ، وسهاماً منيرة في قصائد المؤمنين الأولين من الأنصار والمهاجرين.. إلى أن تسربت إلى المجتمع الجديد ثعابين الفتنة ، تحركها اليهودية والمجوسية من وراء الستار، فإذا الخلق ينحرف عن خطِ النور فتضطرب الخطى ، وينعكس ذلك كله في مسيرة الأدب، فإذا الهجاء المقذع، وإذا الغزل العربيد،

وإذا المديح المسخر يحيل الحبة قبــة ، ولا يستحيي حتى من قذف الصحابة الأطهار بكل قبيح من الأوزار ، ثم ينتهي إلى أن يجعل من ملاحدة القرامطة آلهة ُيدعى لها من دون الله ، بل لا يتورع أن يقول في بعض طواغيتهم :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم ، فأنت الواحد القهار !

وتنحدر الخطابة في المنزلق فإذا هي شحنات من السباب المرذول ، أو الوعيد الذي لا يرجو للعــدالة والحق وقاراً ، حتى لتبتعد عن الاستفتاح بحمد الله ، خشية أن توحي بالرحمة أو اللين !.

وتطغى متارف الشعوب المنحلة على العصر العباسي ، فيوشك الأدب وبخاصةٍ الشعر أن يفقد روحانيته ، بما استولى على قلوب أهله من نزغات المجون والزندقة والملق ، ولولا فقهاء الاسلام والمشتغلون بعلوم القرآن والحديث ، وبخاصة في نظاق اللغة والبلاغة ، لبات الانحراف هو الأصل ، ولعُدت الاستقامة على النهج الأصيل شذوذاً يستغرب صاحبه ويُغرّب ! ولكن شاء الله أن تستمر خيوط الضوء تنبعث هنا وهناك في حواشي الفتنة الغامرة ، فتقدح في الضمائر ذكرى الفجر الصادق ، الذي عجزت كل الانحرافات بما انطوت عليه من فلسفات ومغريات ، عن اطفائه ، فلبث يتدفق على لهوات الكتاب والشعراء والمحققين بين الحين والحين .. ورب شاعر

ملأ الدنيا وشغل الناس ، كما يستهوي أي أديب كبير مشاعر الكثيرين إلى أجل مسمى ، ولكن مشغلته لهم لا تعدو دائرة التلاقي على أهواء أو رغبات ، مستقيمة أو ملتوية وهو باق على منزلته فيهم ما دام لهذه الأهواء وهاتيك الرغبات بقاء . ولكن تراثه جميعه لا يساوي نقيراً في ميزان المثُل ، لولا لمعات برقت في بعض شعره ، فهي تفتح للنفس آفاقاً أوسع من الحياة . ولنمثل لذلك ببعض النماذج من شعر أبي تمام :

يمدح شاعرنا القائد الاسلامي الكبير قاهر الخرّمية أبا سعيد بن يوسف ، فيقول له فيما يقول :

لله أيامك اللائي أغرت بهـا
ضفر الهدى ، وقديماً كان قد مَرِجا
كانت على الدين كالساعات من قِصَر
وعدها بابك من ُطولها ِحججا
...عادت كتائبـه لما قصدت لها
ضحاضحا ولقد كانت ُترى لججا
لما أبوا حجج القرآن واضحة
كانت سيوفك في هاماتهم ُحججا

فهو شديد الاعجاب ببطولة هذا الطائي ، التي ردت إلى الاسلام هيبته بعد أن عبثت بها الفتن ، وقد جمعت عزيمته بين

هناءة الدين وشقاء أعدائه .. وبهذه البطولة استطاع أن يحطم الوهم الذي كان يستبعد قهر هذا العدو الجبار . وذروة الجلال في هذا البطل انه لم يُعمل سيوفه في رقاب أولئك الكفرة إلا بعد أن رفضوا الانصياع لشريعة الله ..

وفي رائعته الرائية التي يرثي بها البطل الاسلامي الآخر محمد بن حُميد الطوسي، والأخرى التي يعلن فيها فرحة المسلمين بمقتل الأفشين ، وفي ملحمته العمورية التي يسجل بها حملته على المنجمين المضللين وغبطته بالفتح العظيم، واطراءَه لعظمة الفاتح الكبير .. نفحات ساحرات من الروح الاسلامي الخالد ، لا يوازيها قوة ولا روعة ثلاثةُ أرباع شعره الفحل الأنيق .. ومثل هذا يمكن أن يقال عن إسلاميات ابن الرومي وبخاصة ميميته في رثاء البصرة .. ولا ننسى في هذا المضمار ملاحم المتنبي في مدح البطل الحمداني، الذي لا يرى فيه مليكاً هازماً لنظيره ولكنه التوحيد للشرك هازم .

وتبلغ هذه النفحات ، إبان الغزو الصليبي والتتاري لربوع الاسلام ، أقصى ما تستطيعه طاقةُ شعراء من الطبقة الثالثة، سيطرت على أذواقهم زخارف التصنيع الذي افسد الشعر العربي أو كاد .. ثم لا تلبث هذه الصبابة من الوهج أن تأخذ سبيلها إلى التواري مع البقية الباقية من قدرة الابداع ، إلى أن تستيقظ كرة أخرى على السنة الطليعة من شعراء العصر الحديث .

مأساة الخلافة :

عندما بدأت موجة الزحف الصليبي الجديد على بـــلاد الاسلام ، كانت بقية من الشخصية الاسلامية لا تزال مسيطرة على سلوك المسلمين ، على الرغم من تخلفهم الفكري ، وفقدانهم أزمة القيادة المدنية ، وعلى هـــذه البقية من الخلق والعقل ارتكزت طاقة المقاومة في وجه الغزو الاستعماري الزاحف.. وقد رأينا هؤلاء الغزاة في كل جبهة فتحوها من ديار الاسلام ، يصطحبون القسس وذوي الاختصاص من رجـــال العلم ، كما يصطحبون الاعتدة العسكرية .. مما يؤكد لنا تصميمهم على استخدام أحدث التجارب المدنية والحضارية لتفكيك البنية الروحية للمجتمع الاسلامي !. ذلك لأن تجاربهم السابقة في مغالبة هذه الأمة قد أثبتت لهم ألا سبيل إلى قهرها إلا بعد تجريدها من مقومات الشخصية الاسلامية ، أو تشكيكها في هذه المقومات . ولكن نجاح هـــذه المحاولات ظل في حيز العدم ، لأن الخلق الاسلامي بقي في منجاة من التدمـــير إلى حد بعيد ، وقد أعانه على الصمود ارتباطـــه الروحي بمركزية الخلافة التي كانت ، على ضعفها واضطرابها، تمثل وحدة الاتجاه بين شعوب الاسلام جميعاً .. لذلك كان على الصليبية أن تركز ثقلها على قاعدة الخلافة ، لتتمكن من القضاء نهائياً على دعامة

ذلك التماسك . وفي هذه الفترة تم التلاقي بين مصالح الصهيونية وأهداف الصليبية ، في نطاق هذا التصميم الجهنمي ، فوضعت المخططات الأساسية لتحقيقه في الدوائر الدبلوماسية ، وفي المؤسسات الماسونية الظاهرة والمستترة ، حتى انتهى الأمر أخيراً إلى تكوين الجيل الجدير بهذه المهمة من أبناء المسلمين أنفسهم حتى في مركز الخلافة نفسه ، فما إن عرضت المناسبة المنتظرة في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، حتى صدر الأمر إلى ممثلي (الدونمه) من عملاء الماسونية والصليبية بتفجير الألغام ، فإذا الصرح الاسلامي الذي ثبت في وجه الزلازل طوال أربعة عشر قرناً ، تتطاير أشلاؤه في لحظة !. وكأنه السد الذي يمسك طوفان الفتن ، فما هو إلا أن صدّع حتى تدفقت سيولها ، تجرف البقية الباقية من وحدة المسلمين وتماسكهم !. ولعل من أحزن المفارقات في أمر هذه المأساة، هو أن العدو لم يصدر أمره بعملية النسف هذه إلا بعد أن نشر سحابة من دخان الدعايات المضللة ، تهيء أذهان المسلمين لقبول النكبة القادمة !. وجند لهذه الدعاية عشرات الأقلام من كبار أدباء المسلمين المرموقين شعراء وكتاباً ، وبخاصة في مصر وتركية ، كانت مهمتها تسليط الأنوار على عملاء الماسونية بوصفهم جماع البطولة الاسلامية ، وتضخيم معايب الخلافة إلى حد التشويه المنفر !. وهكذا انهار سور الخلافة الشهيدة بين

قهقهات الانكليز وضحكات الصهيونيه ، وهتاف المغفلين من المسلمين !. ومن ثم بدأت الطاقات الاسلامية عهداً جديداً من التمزق ، حتى صارت الأمة أمماً ، والوطن الواحد دولاً ! ودعم ذلك الوضعَ احتلالات عسكرية لأجزاء الدولة الخلافية، انتجت جيلاً متعدد مجاري الثقافة والفن ، يكاد يعرف كل شيء عن أعدائه ، ولا يكاد يفقه شيئاً عن أسلافه وأهدافهم . حتى إذا انقشعت سحابة الاستعمار العسكري لم يغادر الوطن الاسلامي إلا بعد أن ترك من ورائه ركائز تحمي مخلفاته من السموم الفكرية ، وتتعهد تنميتها على أحدث الأساليب وأخطرها .

ومن هنا يتضح عمق الجرح الذي أحدثه انهيار الخلافة الاسلامية .. حتى لنستطيع القول بأن معظم الفواجع ، التي هاجمت ولا تزال تهاجم الوجود الاسلامي ، إنما هي من شظايا ذلك الانفجار ، الذي دمر وحدة المسلمين ، وصفق ولا يزال يصفق له الكثير من مضلّلي المسلمين .

أدب ما بعد الخلافة :

لم يكن زوال الخلافة بالأمر الذي يمكن نسيانه بسهولة .. لقد أعقب معاركَ فكرية وأدبية حامية ، اتخذت مذاهب عدة ، بعضها يدعو إلى بعثها من جديد واقامتها على أسس أكثر وعياً وقوة .. وبعضها يكتفي ببكاء الخلافة الشهيدة ،

وعتاب قاتلها الذي لم يكن قد انكشفت حقيقته نهائياً. وثالثها يتمثل في ذلك الفريق الهجين الذي نشأ على مفاهيم العدو، فلا تزيده المأساة إلا ارتياحاً وشماتة !. ثم يأبى إلا أن يستغل عمق الجراح فيكتب ويؤلف في التحقير لشأن الخلافة، حتى ليعتبرها مصدر كل الفواجع التي ألمت بالتاريخ الاسلامي .. وحتى ليعتبر نظام الخلافة نفسه مخالفاً لأساس النظرة السياسية لأصول الحكم في الاسلام !. ثم تصبح دعايته هذه قاعدة أساسية لكل الانحرافات التي نشاهدها في أنظمة الحكم المدخول في العالم الاسلامي حتى اليوم.

وهكذا تكشف المحنة الكبرى عن وجود جيل من المسلمين، يعيش بروحه وعقله مع أعداء دينه وأمته. وهو يرى، لو كان ينتفع ببصره، إلى البابوية الكاثوليكية متصلة البقاء منذ عشرين قرناً، لا تزداد من اتباعها إلا التفافاً وتأييداً، على كثرة الفواجع التي أحلتها بالعالم المسيحي، من حجرها على الفكر، وحربها لأهله، وتعزيزها لنفوذ الطغاة على عامة المسيحيين !.

ولعل أعلى صوت ارتفع في تأبين الخلافة والتذكير بفضائلها أيامئذ حائية شوقي التي نقرؤها فنستعيد ظروف الجريمة وأصداءها في القلوب الكليمة :

عادت أغاني العرس رجع نواح ونعيت بين معالم الأفراح

فهو يجمع في هذا المطلع الحزين بين عواطف الأمس ، يوم فرح المسلمون بانتصار الجيش العثماني على قراصنة اليونان، الذين قتلوا المسلمين وحرقوا عليهم أحياءهم في (سالونيك) كما يفعلون اليوم في قبرص[1] على مشهد من العالم لاسلامي وبأسلحة من بعض المسلمين !.. وبين دموعهم اللاذعة عند تلقيهم نبأ اغتيال الخلافة !.. ولكن شوقياً ، على انطباع معظم أدبه بروح الاسلام معاني وتعابير وألفاظاً، لم يستطع إلا أن يستسلم أخيراً إلى تيار الدعوة القوميـــة ، التي حركتها أصابع الصهيونية والاستعمار من وراء ألف ستار وستار ، وذلك بعد أن الف المسلمون فراغ حياتهم من ضابط الخلافة ، وانصرف كل فريق منهم يستجيب لرسل العصبيات الجديدة في كل مكان ..

ولبثت هذه الأصوات الاسلامية : شوقي ومحرم واخوانهما، ترتفع مذكرة بالمعاني الاسلامية ، رغم جميع التقلبات ، التي سلكتها التطورات الأدبية والفكرية من حولهم .. بيد أن هؤلاء الرواد لم يكن بد من أن ينتهوا ليخلوا مكانهم لخَلْف لا يرى رأيهم في الاسلام، ولا يتصور الحياة تصورهم. خَلْفٍ آمن بما كتبه المستغربون عن (الاسلام وأصول الحكم) فراحوا يطاردون بقايا الروح الاسلامي في الصحافة والشعر والكتاب.. حتى تهيأ الجو لقبول كل عداء للاسلام ، وكل عودة للانحيـاز إلى عدوه ، وتقليد هذا العدو بكل ما ورثـه عن وثنيات اليونان والرومان من ألوان الأخلاق والحياة !.

(١) وفي الفيليبين .

ألوان من الأدب الدخيل :

وكان من شأن هذا الانتقاض الجريء أن وجدنا أنفسنا تلقاء ركام من الأدب الدخيل ، لا صلة له بروح هذه الأمة ، إلا من حيث كونه مصوغاً في ألفاظ عربية .. أما مضمونه ، وأفكاره ، وظلاله ، فسموم مرشحة من هناك وهنالك ، لا غرض منها سوى التعفية على بقية المثل الاسلامية ، ومع ذلك فهو مشحون بالغرور الذي لا يستحيي أن يزعم أنه يريد تجديد البناء الاجتماعي لهذه الأمة !.

وأنا لا أتحدث عن غائب قد مضى . بل عن واقع لا يزال ماثلاً في كل جانب من حياتنا الأدبية ، ولا أتكلم عن العرب وحدهم ، بل أستطيع القول بأنه يكاد يكون الطابع الغالب على كل ما عداه من ألوان الأدب في العالم الاسلامي .. بدأ ذلك في تركية ، أواخر أيام الخلافة العثمانيـــة ، وحين سلط (الاتحاد والترقي) غِلمانـه من صعاليك الأدب لإثارة الغرور القومي في نفوس الأفراد ، بتمجيد ماضيهم الوثني ، واحيـاء عبادة الذئب التي أنقذهم الاسلام من مستنقعاتها ، ثم جعل هذا التحلل العقلي يتسرب إلى جوانب العالم الاسلامي كله شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح شأنه مع الأدب شأن العملة المزورة ، لا تلبث أن تظهر في السوق حتى تطرد العملة الصحيحة – كما يعبرون في عالم الاقتصاد – ونظرة نلقيها اليوم على أدب هذه الشعوب من الهند إلى حدود البلقان ، ترينا أن الاسلام يوشك

أن يمسي غريباً عن أصحاب الأقلام في هذا العالم ، إلا بروقاً تنطلق في خلال الظلام ، لا تلبث أن تلمع حتى تطاردهـا شياطين الطغيان بكل سبيل وبكل الوسائل ، حتى التعذيب والافتراء والتشريد !. وحتى مصادرة المؤلفات التي لم يبق سواها مترجماً عن كلمة الله !. ولولا بقية من نور الإسلام ترسلها بعض الصحف الاسلامية كالبعث الاسلامي في الهند وترجمان القرآن في باكستان ، والبصائر في الجزائر ، والميثاق في السودان ، والمسلمون في جنيف ، والوعي الاسلامي في الكويت ، وحضارة الاسلام في دمشق ، والمجتمع في لبنان ، وبعض الصحف الأخرى المغامرة في تركية وغيرها .. ولولا الصرخات الاسلامية تنطلق من هنا من مشرق النبوة ، في مؤتمرات ومقالات ومذاعات ، لولا هذه البقية من الطاقات المناضلة في سبيل الاسلام ، لتكاثفت الظلمات ، حتى لو أخرج المسلم يده لم يكد يراها .

لقد اقتحمت هذه السموم — التقدمية — كل مجـال ، منتهزة تسلط الغوغاء على أزمة السلطة . وخلو الميدان من أية وسيلة فعالة لكشف عوراتها .. يدفعها إلى ذلك أيضاً ثقتها بأن الجيل الذي تخاطبه هو أبعد ما يكون عن مواطن الثقافة الاسلامية ، سواء أكانت مدرسة أو صحافة أو إذاعة. فإذا كان لدعاة الاسلام ما يقولونـه في الرد عليهم ، فلن تتجاوز ردودهم مساحات صغيرة موقوفة عليهم وحدهم ، ولو

علموا لهذه الأدوات صلة بمن يخاطبون خارج هذه الحدود لما ترددوا في القضاء عليها .

وهل أنا بحاجة إلى النصوص استشهد بها لابراز شخصية هذا الأدب السام ! كلا ، لأنها أشهر من أن تجهل . وسأكتفي بالاشارة من بعيد إلى نماذج يسيرة .

هناك مثلاً مجلة ذات نفوذ بعيد في الجيل الجديد ، قد دأبت أن تحمل في كل عدد منها كلمة طيبة لعلم شهير من مفكري الاسلام ، ولكن القارىء ما يكاد يقلب صفحاتها الأخرى حتى يرى معاول الهدم تهوي على جذر الشجرة الطيبة كلها ! .. إن هناك تشكيكاً بصحاح الأحاديث ، وفتاوى حمقاء في الربا والخمر.. لو صدقناها لكذبنا الله ورسوله .. وهي لا تقبل رداً على ما تكتب إلا أن تمزقه حتى يفقد مضمونه، فإذا نشر الرد في سواها كان ذلك غاية مناها ، لأنها واثقة ان ٦٠ ٪ من قراء باطلها لن يطلعوا على ذلك الحق ! ومهما يكن من شيء فإن الأمر لكما قال الشاعر :

قد قيل ما قيل ان صدقاً ، وان كذباً
فما احتيالك في قول إذا قيلا

وفي الربا تصدر بحوث وفتاوى ، تقلب النظام الاسلامي رأساً على عقب، فماذا يعمل العاملون بما وراءها وما أمامها؟.. ليس لهم إلا أن يكتبوا ويتكلموا في المجالس .. ولكنها

معركة في فنجان لا تلبث أن تهدأ ثم لا يبقى سوى مـا قاله المفتون الرسميون !.

وفي القومية التقدمية يكتب أحد فلاسفتها في مجلة رسمية: ان الخلق العربي الذي نشأ على الإباء والعزة والديمقراطية في أحضان الجاهلية ، قد سلبه الاسلام أفضل خصائصه ، وذلك بما فرضته الفتوح على العربي من امتزاج بالأعاجم !. ولقد قرأ هذا اللغو يومذاك عشرات الآلاف بالأقل .. فماذا قرؤا من التفنيد لهذا الباطل الوقح !. لا أعرف أحداً كتب كلمة في الموضوع ، لسبب واحد هو ان (الديمقراطية التقدمية) التي تسند بسلطتها المسلحة هذا العربيد لا تريد أن تثقل الناس بأعباء الحرية ، ليدفعوا مثل هذا الاتهام عن دينهم ، لأن الدفـاع عن الاسلام نوع من الطـــائفية التي لا تتلاءم مع الديمقراطيات التقدمية ! .

وعلى ذكر الطائفية لا نستطيع أن ننسى من أدعياء الأقلام تلك الفئة التي نشأت على الاستهتار بقيم الاسلام ، حتى أصبحت تأنف أن يظن بها التدين !. ولنضرب مثلاً لهم ذلك المدرس الذي يحمل لقباً جـامعياً عالياً ، ويعمل في حقل الأدب بقصص ومقالات ينشرها بين الحين والحين .

في مجلة دمشقية نصرانية يروي هذا الجامعي قصته العجيبة بالمعنى التالي : (كان وامرأته مصطافين في قرية نصرانية من

جبل لبنان . وذات ليلة أحس حركة غير عادية في المصيف ، فسأل ربة الدار العجوز فإذا هي تخبره بأن الليلة موعد تجلي العذراء .. وأنها فرصة لكل ذي حاجة ليتقدم بنذره اليها وهو واثق من تحقيق الإجابة !.. وتذكر أنه غير ذي ولد فليتجه وزوجه إذن بالنذور إلى العذراء .. وليسألاها ما عجز الأطباء عن تحقيقه !. وينتقل الأديب الأريب ليؤكد لنا تحقيق الإجابة ، ثم يختم قصته بأن ابنتيه اللتين ولدتا بفضل تلك النذور ، قد وكل بتربيتهما راهبات إحدى المدارس التبشيرية في مدينة حلب ! .) ليقوم هو بوظيفته التدريسية في أقدس بقاع الدنيا ! .

هذا النوع من القصص يعتبر في نظر صاحبه وقرائه من الروائع الباعثة للفخر ، لأنها من أكبر العوامل في إزالة التعصب البغيض - بنظره - !.. وإن كان في نظر الاسلام ، الذي يحمل هذا الجامعي هويته ويعيش بفضله ، كفراً بواحاً ، يخرج كاتبه من حظيرة الملة !.. وقد يجرف الكثيرين من ضعفاء الأحلام وصعاليك الأدب في تياره فيسلكون سبيله لا في الأدب فقط ، بل في التطبيق كذلك !..

ولكي تكون نماذجنا شاملة لمختلفِ ألوان الأدب التقدمي، نذكّر بتلك الفتاة البيروتية .. التي ولدت في بيت مسلم كان فيه دين وأخلاق فيما أعلم ، فما هي إلا أن أطلت على الأدب

الفرنسي حتى جرفهـا تيار الوجودية .. فإذا هي تدعـو إلى أخس ضروب الفجور .. ثم تصور ذلك كله في كتاب باسم (سفينة حنان إلى القمر) لا تتورع أن تصف فيه مغامراتها الجنسية على وجه تستحيي الكلاب الشاردة من عرضه .. ثم تنتهي أخيراً إلى التزوج من نصراني من فصيلتها ، لم يجد من يعقد لها عليه إلا في أوروبة .

ولا يسعني أن أنسى يوم جاءني أحد الزملاء بمجلة من أبرز الصحف المصرية .. ليريني هذا البحث العجيب : أحد قراء المجلة يقص خبر امرأة سلمت جسدها لرجل ، فلما حملت منه لفظته واكتفت بثمرته !. ويقول هذا القارىء : إنها الآن مكبة على تربية ولدها على أفضل الوجوه .. ولكن الناس السخفاء جداً يسمونها فيما بينهم زانية!..وهو يكتب إلى المجلة عن هذه القصة ليرى رأيهـا في المرأة !.. وتولت الجواب إحدى الكاتبات ، فجعلت تطري عمـــل المرأة إذ تراه نوعاً من البطولة الخارقة ، بطولة الخروج على رجعية المجتمع !.

ولكي نتصور مبلغ الخطر في هـذا الأدب المتحلل على الشخصية الاسلامية، يكفي أن نذكّر بأن إحدى دور النشر في لبنان قد اشترت حق الطبـع لأحد دواوين الشعر الداعر بما يزيد عن عشرة آلاف ليرة لبنانية..على حين لا يكاد مؤلف الكتاب الاسلامي ، كائناً ما كان ، أن يجد من يغامر بنشره مقابل أدنى تعويض !!.

وسائل إيضاح :

ومن السذاجة بمكان أن نحسب مثل هذا الوباء عفوي الحدوث ، كأن يتوارد عليه أولئك المسخرون لنقله ونشره والإغراء به ، دون أن يكون ثمة تصميم أو تواطؤ !..

لقد كان القول بهذه العفوية معقولاً قبل هذا القرن ، أما بعد ذلك فلا .. والذين يتتبعون خيوط الجريمة يدركون أن وراء هذا التوجيه تخطيطاً دقيق النسج ، قد حيك بأيد على مستوى خطير من الخبرة والدهاء .

وأنا هنـــا أجدني مضطراً إلى استعمال بعض وسائل الإيضاح ، لتتبع بعض هذه الخيوط التي يمكن أن تعيننا على استبانة الطريق ..

في الشرق والغرب وما بينهما شباب هــاجروا من ديارهم الاسلامية طلباً للعلم ، بعضهم يتألف من بعثات رسميــة ، وكثيرون خرجوا على نفقة أهلهم .. وقد عادت أفواج من هؤلاء وأولئك إلى مواطنهم ، ووراءها أفواج تتلوها أفواج.. ليسوا جميعاً على مستوى واحد من النجاح أو الثقافة ، ولكنهم جميعــاً كانوا ولا يزالون معرضين لِمحْنــة خطيرة في دينهم وأخلاقهم وألوان سلوكهم .. وقليل منهم الذي ترك بلاده مزوداً بالحصانة الشخصية الكافية ، وطبيعي أن يعودوا وهم

ملوثون بالكثير من أوباء الغرب ، التي تنخر في صميم كيانه ، فتدفعه دفعاً إلى الهاوية !.

ذات يوم ذهبت لزيارة طالب تخرج في ثانوية كنت فيها مدرساً ، وكان من أحب الطلاب إلي ، لما أحسسته من فطنته وغيرته الاسلامية ، ولا غرابة فهو قد نشأ في بيت معروف بالفقه والدين ، وكان يومئذ عائداً لتوه من باريس . وأحببت أن أستكشف أبعاد نفسه بطريقة سريعة ، فقلت له : صف لي انطباعاتك الأولى وأنت تطأ أرض وطنك بعد غياب خمس سنوات !! فقال في صراحة غريبة : كانت حزينة هذه الانطباعات ، لأن أول ما فاجأني هو حرمان المرأة في بلادي من المسابح المختلطة ! ...) وكان جواباً شحن جو البيت دهشة ، ورجف أعصاب والدته المسكينة ! ..

وأنا أكتفي بايراد هذا المثل دون تعليق ، لأن أشباهه أكثر من أن تحصى بين العائدين من تلك الهجرات الدراسية في أرض المادة والشهوات !..

وعلى ذكر المسابح المختلطة أذكر الحادثة الآتية أيضاً :

قبل بضع سنوات بدأت في شواطىء بلادي سلسلة من هذه المسابح ، ولد أولها في ثغر اللاذقية ، ورتبت لافتتاحها حفلة رسمية ضمت الكبار من رجال الدولة ، وكان بين خطبائها رجل دين رسمي ، وقف بين طائفة من السابحين

والسابحات ، ليقول في خاتمة خطابه الذي نشرته أكثر الصحف في سورية ومصر : (.. ومن هذه المدارس الرياضية الجيدة سيتخرج الجيل الذي سيحرر فلسطين !! ..) .

وكانت كل كلمة تقال يومئذ في تفنيد ذلك الادعاء تكلف صاحبها حريته بل حياته ، ولكن لم نجد بداً من الاعذار إلى الله ، فقلنا ما وسعنا قوله ، في كثير من الاناة والتلطف ، وعقيب ذلك جاءت دعوة المحقق ، فأعدتُ له ما قلته بكل جلاء ، وبينت له ان هذا رأي الاسلام الذي لا نستطيع له كتماناً . فقال : ولكن عليك أن تعلم ان خطة العهد الجديد تقضي باخراج المرأة إلى المسبح ، لكي تتحرر من كل أثقال الماضي ، وكل نقد لهذه الخطة يُعتبر تمرداً على قوانين الدولة وعلى رئاستها العليا ! .» ثم لم تمض أيام على هذا الانذار حتى صدر الأمر بتسريحي من التدريس ، ولم أعد إلا بعد أن زال العهد كله وبقيت مسابحه المختلطة !.

وفي بيروت دار للنشر كبيرة ، اتفقت معها على إصدار سلسلة من القصص الاسلامي لتوجيه الشباب والطلاب ، ولكنها لم تنته من إصدار الكتاب الرابع حتى شرعت تتردد في إصدار ما بعده ، ثم صارحني بعض أصحابها بقوله : هذا الأدب الاسلامي محدود المردود ، فاكتب لنا على طريقة جورج حنا .. وسترى ما يسرك !. وطريقة (جورج حنا)

واضحة في كتابه الذي نشرته تلك الدار بعنوان (ضجة في صف الفلسفة) والذي ينقل فيه بأمانة إلى قراء العربية رأي الماركسية القائل بأنه (لا إله ، والحياة مادة) !..

هذه أمثلة بعضها رسمي يمثل رأي الدولة ، وبعضها شخصي يمثل اتجاهات الأفراد أو المؤسسات ، ولكن القدر المشترك بينها أنها تلتقي على استهداف التغيير الجذري لبنية المجتمع الاسلامي نفسه !..

الببغاوات الكبار :

وهنا أجدني مضطراً للتذكير بأن هذا النوع من التخطيط الكياني لم يتبلور نهائياً إلا بعد قيام التجارب الاشتراكية في بعض بلاد الاسلام .. وقد أصبح أشد ما يكون صراحة وجرأة ، وبروزاً في تلك التعابير الجديدة ، التي تقرع أسماع الناس ، وتطرف أبصارهم صباح مساء ، سواء في الاذاعات الموجهة لخدمة هذا التخطيط ، أو في الصحافة المقصورة على تمريس الأذهان بشعاراته . وقد تناول هذا التنظيم المركّز حتى عنوانات الكتب التي تقفز لعينيك في كل واجهة لمكتبة ، وفي كل قائمة لدار نشر !.. فالتقدمية والثورية ، والدفع الثوري ، والاشتراكية العلمية ، والأدب الاشتراكي ، والجيل الاشتراكي ، والدراسات الاشتراكية ، والحتمية التاريخية .. وعشرات التعابير المشابهة ... يقابل ذلك الرجعية ، والعمالة،

والفاشية ، وأشكال كثيرة أخرى من الألقاب التي ينبز بها خصوم الاشتراكية ، ولا تكتب ولا تلفظ إلا ضمن إطار من التحقير والتشهير ..

وقد بات من فضول الكلام أن يقال بأن وراء ذلك إيحاءاً نفسياً يستهدف تكوين جيل ذي ذهنية لا تهضم إلا مثل هذه الشعارات ، بالغة ما بلغت من الخواء الفكري ، والفراغ الروحي .. ولا تفهم معاني الألفاظ إلا في حدود هذا المعجم، الذي يدمغ كل كلمة لا تقرها الاشتراكية بالانحطاط والتفاهة !.

ولكي تتضح الغاية المنشودة من هذا الايحاء بصورة أدق ، نذكّر بأن وزيراً اشتراكياً في إحدى الدول الاسلامية ، وقف في إحدى المناسبات التوجيهية يفسر بعض أهداف حزبه ، فصرح بأن تحقيق المجتمع الاشتراكي يقتضي تفكيك البنية القديمة للكيان الاجتماعي ، ثم إعادة تأليفها على الطريقة الجديدة التي يخططها الحزب !.. وهو تعبير ليس لي فيه سوى الصياغة اللفظية فقط !.. وليس في معانيه جديد بالنسبة إلى المدركين للدعوات اليسارية والثورية .. التي لا تخفي تصميمها على اجتثاث جذور الماضي كلها ، بما في ذلك الدين والآداب !.. ومثل آخر من ذلك ، أسوقه على لسان موظف كبير في معارف دولة اسلامية .. كان هذا الموظف

مراقباً لبعثات دولته في جامعات أوروبـة ، وفي إحدى جولاته بشرق أوروبة تجمع حوله الطلاب يشكون ما يجدونه من إكراه على دراسة الماركسية ، ويرجون توسطة لاعفـائهم منها ، ولكن الرجل ما لبث أن جمعهم ليحاضرهم في فضائل الثقافة الماركسية ، وليحضهم على ضرورة العناية بها !..

وطبيعي ان الرجل لم يكن بذلك خـــارجاً على رأي دولته .. ولكن حدث بعد مدة أن تأزمت العلاقـات بين هـذه الدولة وبين المعسكر الشرقي ، فإذا بحكومـــة هؤلاء الطلاب تستعيدهم من المناطق الشيوعية إلى عـــاصمتها ، ثم تحشد لهم المحاضرين الاسلاميين ليشرحوا لهم حقيقة الشيوعية وخطرها على الاسلام ، ومن ثم تردهم إلى مناطق دراساتهم ، مزودين بأفكار غـــير ناضجة عن المعركة بين دينهم وبين الشيوعية !.. بيد انـه لم يمض سوى زمن يسير حتى خمدت تلك الحرارة ، بزوال التوتر الطارىء على تلك العلائق ، فإذا بأجهزة تلك الدولة كلها تعمل لنشر المفاهيم الماركسية وتزويق شعاراتها ، ومد هذه الشعارات إلى الدراسات العليا ، وإلى مراكز التوجيه الاسلامي ، التي استمرت على مر القرون ، وإلى سنوات قليلة ، مناراً عـــالمياً لدعوة الاسلام في جميع أنحاء الدنيا .. وهكذا كسبت هذه الشعـــارات مناطق جديدة ، لم تتح لها من قبـل ، وربحت أقلاماً جديدة متوجة هذه المرة بعمائم كبيرة !..

هذه معالم بارزة لا تدع أي مجال للشك في أن ثمة تخطيطاً عميق التركيز ، يريد القضاء نهائياً على البقيه الباقية من الوجود الاسلامي في المدرسة والجامعة ، والشارع والبيت . وهو في سيل هذه الغاية الجهنمية مستعد لصبغ أفكاره ببعض الطلاء الاسلامي ، فيتوج قراراته الهادمة للاسلام بالبسملة ، ويطرح شعاراته الالحادية بين جماهير المسلمين مفتتحة بالحمدلة، ثم يبذر أكداس الأموال جوائز لتلك الأقلام التي رضيت بتبني اتجاهاته ، والأقلام الأخرى التي تجاهلت محاولاته !.

وقد بلغ من دهاء هذا التخطيط انه سجل أكبر نجاحاته في مجالات الأدب ، وأخص منها هنا تلك المؤتمرات التي ما فتىء يدفع اليها بين الحين والحين ، في مختلف ديار الإسلام، ويحشد لها أنشط عناصره التي صنعها على عينه ، فجعل من أدبها شعره ونثره رواسم – كليشهات – ملونة لشعاراته المغرية .. وسيق إلى هذه المؤتمرات المهرجون من كل قبيل ، يدخلونها نكرات ببغاوية ، ويغادرونها بأضخم الألقاب الأدبية !..

وعلى هذا النحو تسلط الأضواء على المهازيل المفاليك ، وتصرف أنظار القراء ـ وبخاصة في أوساط المراهقين والمراهقات ـ والمراهقة لا سن لها ـ عن فحول رجال البيان في بلاد العرب والاسلام .. إلا من ناء ظهره من شيوخ الأدب

بأعباء الحرية ، فانحنى لأوامر الطواغيت ، يصوغها قطعاً من الأدب الكاذب ، تضخم الأقزام حتى تجعل منهم عباقرة الأنام ، وتضاهيهم بالأنبياء الكرام ! ..

ولقد كانت خطط التهديم من قبل ترسم في دوائر القسس ورجال الحرب والسياسة الصليبية والماسونية اليهودية في الغرب ، فأضحت اليوم تصنع في الشرق والغرب جميعاً ، ولكل منها بعد ذلك أساليبه الماكرة في بث السموم ، واشتراء الذمم ، وإفساد الضمائر .. حتى أصبح الاسلام وهداته من هؤلاء وأولئك في الموقف الذي يصفه الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش

فما يدري خراش ما يصيد !

ولعل قمة المهزلة في هذه التيارات الشيطانية ، تتجلى في محاولة تحويل الحذر كله ضد الاستعمار الغربي وحده ، بوصفه عدو الحرية والاسلام الوحيد، وتصوير الزحف الشرقي ، بكل ما فيه من استهانة بالانسان والحريات ومعاداة للدين، على انه مطلع النور ، وحصن الحرية، وصديق الاسلام الأول والأخير ! .. حتى كان من جراء ذلك أن ألفينا أنفسنا أمام طائفة من الشباب غير قليلة العدد في ربوع الاسلام ، لا ترى أي بأس في الجمع بين الماركسية والاسلام ! .. بل ان الواحد منهم ليفتخر بالتصريح انه مسلم شيوعي ! .. بل لقد أصبح من المألوف جداً أن نقرأ

في صحيفة تصدرها وزارة أوقاف اسلامية ، مقالاً يصور صاحب الزنج ، مدمر البصرة ، وقاتل ثلاثمئة ألف مسلم فيها ، على انه أحد أبطال الاشتراكية الاسلامية ! .... بينما نحن لا نجد واحداً من أذناب الاستعمار الغربي يجرؤ على التظاهر بنصرة المبادىء الاستعمارية بمثل هذه الصراحة .. وما كان هذا ليحدث قط لولا ثقة اتباع ماركس باستيلائهم على الجماهير ، عن طريق مئات الوسائل التي يملكونها من أسباب الدعايات !..

ولعل من غرائب الاتفاق أن يسمع الناس متحدثاً من إحدى الاذاعات التقدمية يصرح ، وأنا في صدد إعداد هذه المحاضرة : إن الاسلام بدأ رأسمالياً ، ثم أصبح اشتراكياً ، وفي غد سيكون شيوعياً .. ويظل هو الاسلام نفسه !.

صراع وحصار :

ونحن حين نشير إلى هذا التطور الاجتماعي الخطير في بلاد المسلمين ، وأثره العميق في عقيدة الأمة وسلوكها ، وانعكاس ذلك كله في آدابها ، لا نريد تصوير ذلك الغزو على انه قضى على جميع عناصر المقاومة الاسلامية .. بل غير ذلك نريد ، فالصراع بين الفكر الاسلامي والأفكار الغازية يبلغ أقصى ذراه في كل مكان من وطن الاسلام ، بدءاً من القارة الهندية إلى أقصى المغرب ، وحسبنا دليلاً على هذه الحقيقة أن كتاباً

كجاهلية القرن العشرين ، وآخر كمعالم في الطريق ، قد اعتبر في نظر اليسارية الغازية من أكبر الجرائم التي تستحق المصادرة، ويستحق مرتكبوها أقسى المعاملات ! وقبل ذلك اعتبرت رسائل النورسي في تركية الكمالية خطراً يستدعي الترويع والارهاب والسجن والقتل .

أجل إن استمرار الصراع لأمر مشهود ، وللأدب الاسلامي في هذا الميدان جهود جبارة بعيدة الغور ، ولكن الذي يخيفنا ويجب أن يخيف كل مسلم ، هو أن الفكر الاسلامي قد أحيط به حتى أصبح اليوم في موقف الدفاع ! فكأنه متهم كل واجبه أن يثبت حقه في البقاء ... وهي مرحلة لا نبالغ إذا قلنا بأنها تمثل قمة المحنة،فلقد استمر الفكر الاسلامي قوة عالمية ثم شبه عالمية مدى ثلاثة عشر قرناً ، يعرض خلالها حقائق الدعوة ، ويناقش ما يعارضها في حرية واستقلال ، حتى انتهى إلى عصر النهضة فكان بعثاً جديداً في أفكار محمد بن عبد الوهاب ، وعلى لسان الأفغاني ، وفي دروس محمد عبده ، وفي بحوث الأمير شكيب، ثم في مؤلفات الاستاذ المودودي وأشعار إقبال ، وفي دعوة ابن باديس وإخوانه التي صارت بالجزائر إلى الحرية ، ثم في رسائل الجماعات الاسلامية في الهند وباكستان وايران ، وفي مصر وسورية وأندنوسية وتركية الكمالية .. ولكن هذا الدفع الاسلامي ، على روعته وقوة منطقه ، ظل في نطاق المجهود

الشخصي، يحركه الايمان، وتوقده الغيرة على الحق، على حين كان الاستعمار يبث سمومـــه في قلوب الجيل عن طريق البرامج المدرسية التي عزل عنها الاسلام عزلاً تاماً، وفي بعض البلاد الاسلامية ـ كتركية الكمالية ـ عن طريق الاكراه على هجر لغة القرآن وحروفها، باسم القومية، التي ما لبثت أن مزقت بقية أجزاء الخلافة إلى قوميات وقوميات!.. وفي هذا الجو ولدت الناشئة التي أقفرت ذاكرتهـــا من كل أثر للثقافة الاسلامية، اللهم إلا ما نفثه التوجيه الابليسي في رُوعها من كره لكل ما يتعلق بالاسلام.. وما شحن به قلوبها من إعجاب بكل ما هو معاد للاسلام!.

ثم تلا ذلك عهد الجلاء العسكري عن بلاد المسلمين، فإذا هي تنوء بما ترك لها من أعباء الفقر والتخلف حتى لا تجد بدأً من استمداد العون من أعداء الأمس، فتقيم اقتصـادها على الأسس الـــتي يريدون، وتقذف بأبنائها في أحضانهم باسم التعاون الثقافي، لتنشئهم على الاسلوب الذي يرتضون، ثم يكون حصادَ ذلك أكداس من الانحرافـات العقلية والنفسية والسياسية، زلزلت كيـان الأمة، وهددت تراثها الإلهي بأفدح الأخطار!..

وهكذا وجد العالم الاسلامي نفسه فجأة أمـام تيارات متعددة المصادر بعضها من الغرب، وبعضهـــا من الشرق،

وبعضها من الاسلام الصحيح ، وبعضها من الاسلام المشوه، ولكل من هذه التيارات أتباعه المؤمنون .. ولعل أشدهم حماسة لاتجاهه ، واحتيالاً لتحقيقه ، أبعدهم عن حقيقة الاسلام ..

وبذلك يكاد التاريخ يعيد نفسه وأحداثه ، أيام تدفقت على العقل الاسلامي أخلاط المعارف من وثنيات الهند وفارس، ومن تمحلات يونان والرومان وأهل الكتاب .. فإذا المسلمون أكثر من سبعين فرقة، وبين بعض هذه وبعض كالذي بين أمة وأمة .. وإذا هناك معارك تُمزق فيها الأرحام ، ويمتحن فيها الأئمة ، وتخرب فيها المدن وتزهق فيها أرواح الملايين ، ثم انتهت بسقوط بغداد في أيدي الكافرين بمؤامرات المخالفين، فكانت قمة الكوارث ، دُمرت بها الحضارة ، وذهب السيف بمليون وثمانمئة ألف من أبناء الاسلام .

ملاحظات :

هذه رحلة سريعة عبر التاريخ ، رصدنا بها تطور الحياة وانعكاسات هذا التطور في الفكر الاسلامي وآدابه ، منذ الجاهلية حتى يومنا هذا .. وطبيعي أن نقف في أعقاب هذه الرحلة قليلاً لنتساءل عما يجب علينا عمله .. وسأبسط في إيجاز بعض الملاحظات التي لا سبيل لاهمالها في أية محاولة للتصحيح .

مراقبة البعثات :

إن وفادة الطلاب على أوروبــة وأمريكــة ومناطق الشيوعية أمر لا سبيل لمنعه ، قبل أن تصل البلاد الاسلامية إلى حدود الاكتفاء الذاتي في نطاق التعليم الجـــامعي ، وهو هدف سيظل مستحيل التحقيق إلى أمد بعيد ، فلا أقل من أن يعمل المسئولون من المؤمنين بالاسلام على التخفيف من مضار هــذه الهجرات الاضطرارية ، ولا يتم ذلك إلا بالطريقــة التي سلكها محمد علي باشا في شأن أولى البعثات الاسلاميـــة إلى أوروبة . ان هذا الرجل قد أدرك بثاقب نظره ما ستتعرض له بعثاته من مخاطر أخلافيــة ، لذلك عمد إلى استعمال الوقاية والعلاج معاً ، وكان ذلك أولاً بحسن الاختيار لنوع الطلاب ، فاتخذهم من أبناء الأزهر الذين عرفوا بالضبط النفسي والمصابرة في طلب العلم .. ثم بتحصين هؤلاء الموفدين ضد أوبئة الغرب، وذلك بأن ألزمهم السكن في وسط واحد ، وضم إليهم فقيهاً من ذوي الدين والحذق يستفتونه في كل نازلة تلم بهم ، وهكذا عاد أفراد البعثة ناجحين مئة بالمئــة ، فكان كل منهم عالماً في مادته التي بها اختص ، محتفظاً بشخصيته الاسلامية كما بدأ ، ثم انطلقوا يعملون في بناء النهضة الجديدة في مصر .. وإليهم يعود الفضل بكل نجاح في هــذا المضمار . ونحن اليوم وبعــد

قرن ونصف على تلك البعثة الأولى لا تزيدنا الأيام إلا إعجاباً بذلك التنظيم الحكيم ، موقنين ألّا سبيل إلى الانتفاع الكامل بهذه البعثات إلا بأن نهيىء لها الجو الروحي الذي يصون لها ارتباطها بأمتها ورسالتها .. ويومئذ لن نسمع من أبنائنا العائدين من الغرب ـ أو الشرق ـ مثل تلك الأفكار التي تتنكر لفضائلنا ، وتعمل على تهديم كياننا . وبالتالي لن نقرأ لهم مثل ذلك الأدب الهدام ، الذي يقول بأن لا سبيل إلى نهضة إو حضارة إلا أن نخوض إليها كل رذائل الغرب !. وبهذا التنظيم فقط نحمي قلوب أبنائنا من مخالب المبشرين ، الذين أعدوا لاصطيادهم المساكن والنساء والرحلات الجامعية التي أشارت إليها مجلة المسلمون ، عندما حدثتنا عن رحلة أعدتها احدى الجامعات الالمانية ، وكان بين ألوانها محاضرات ألقاها مبشرون ، يزينون فيها للطلاب المسلمين شرب الخمر ، ويعتبرون الامتناع عنها تشبثاً بأسباب التخلف !.

الترجمة :

لقد ضيقت الكشوف الحديثة مساحة الأرض والفضاء ، فامتدت آفاق العلم إلى ما وراء حدود الأحلام ، وبات مستحيلاً حبس العقل البشري في نطاق الاقليم أو القارة ، أو الأمة ، والعوامل التي تسهم في هذا التقريب كثيرة ، لعل في مقدمتها الترجمة ، فبالترجمة تنتقل الأفكار وأنباء العلم

من جهة إلى جهـة ، ومن لسان إلى لسان .. ومن الجنون أن تقوم دولة ما باقامة الأسوار دون نفاذ العلم إلى رؤوس أبنائها كما تفعل بعض الدول . والاسـلام ، وهو دين العلم والتفكير الحر، لا يقرُ هذا النوع من الحجر الفكري أبداً ولكنه يعنى بحماية النفوس الغضة من تسرب السموم، ويوجب إقامة المحاجر الصحية عند ظهور الوباء، ولا كالإلحاد والفجور وباء ، ولذلك ليس من الاسلام أن ندع الميدان خالياً لدعاتها ، يغزون قلوب المراهقين والمراهقات بهذا النوع من الأدب الملغوم ، الذي لا يستهدف سوى إفساد الفطرة وتشويه الحـلوم !. والواجب بإزاء ذلك يختلف تقديره باختـلاف وضع المسلمين . فحيث يقوم النظام الاسلامي بمهمـة الحكم يكون من حق الدولة تحقيق هذه الحماية ، وذلك بحظر هذا اللون من الترجمة ، كما تحظر تسرب المخدرات والسموم الأخرى إلى داخل حدودها بموجب القانون . أما حيث يُحكم المسلمون بغير شريعة الله ، فالحماية منوطة بضمائر المفكرين الاسلاميين الذين عليهم أن يتعقبوا تلك السموم بما يفضح أسرارها ، ولو أدى بهم ذلك إلى السجون وألوان العذاب ، وإلى مصادرة كتبهم واتلافها ، فإن الاسلام الذي يدافعون عن أمانته يستحق أكثر من هذه التضحيات ، ولا يستطيعون إلا أن يفعلوا ذلك لأنهم موقنون ان إخلاء السبيل لهذه الأوبئة لا يقل خيانـة عن فتح معاقل

الاسلام أمام جيوش الصليبية والصهيونية والماركسية .. دون أية مقاومة !.

العناية بالعربية :

لقد كرم الله العربية منذ أنزل بها كتابه الخالد على أعرب العرب (ص) .. ومنذ ذلك اليوم باتت لغة القرآن مطمح النظر لكل مسلم عربياً أو غير عربي ، ومن هنا كان تراث العربية في العلم والأدب هو تراث العبقرية الاسلامية التي هي في الواقع صفوة العبقريات البشرية .. ولا حاجة إلى التذكير بأن طائفة من ألمع الأسماء في نطاق الشعر والنثر العربيين ، لا ترجع إلى أرومة عربية في الدم ، ولكنها اكتسبت عربيتها بهذا اللسان ، الذي أصبح بالاسلام مرشحاً ليكون لسان العالم البشري كله . ولكن لغة القرآن ، التي امتدت مع الاسلام حيث امتد ، واجهت صدمات مميتة خلال القرون ، وبخاصة بعد التسلط الاستعماري على وطن الاسلام . وها نحن أولاءِ نعاني مرارة هذه الصدمات في صعوبة التفاهم مع إخوة لنا في الاسلام ، نعيش معهم في الحرمين بقلوبنا وعواطفنا ، ولكننا لا نفهم منهم حرفاً ، ولا يفهمون منا حرفاً !. فكأن بيننا وبينهم سداً من القرون لا سبيل لاختراقه !. وكثيراً من ذلك نقاسيه مع إخوة لنا من مسلمي العرب أنفسهم ، عندما ينطلقون مع لغاتهم الدارجة ، يتحدثون فلا

نكاد نفهم عنهم ولا يفهمون عنا !. وهذه مشكلة لا بد لهـا من حل جذري إذا كنا نُعنى حقـاً بوحدة أمتنا ، ووجوب التلاقي فيما بينها .. والعلاج في رأينا ذو شقين ، أحدهما يتعلق ببلاد العرب،والثاني يتعلق بصلة العرب مع الشعوب الاسلامية أياً كانت .

أما الأول فيفترض مضاعفة العناية بلغة القرآن عن كل طريق ، وبخاصة الاذاعة والمدرسة والسينما والنشر ، وهـذا يقتضي وضع تخطيط رئيسي يحدد واجب الحكومات العربية في تشجيع الفصحى ، وتقريب أذهان الجماهير منها ، وذلك بتعريب هذه المؤسسات تعريباً تامـــاً . وأقول : تعريب .. لأن اللغات الدارجة تقتحم هذه المؤسسات بقوة ، فالأغاني والبرامج الشعبية ، ولغة التدريس والسينما ، كل أولئك يغلب عليها الطابع العامي.. ومن شأن هذا الوضع أن يقوي العامية على حساب الفصحى ، حتى يجـــد العامي نفسه في غنى عن الانتباه لألفاظ الفصحى ومعانيهـا ، وهكذا تسيطر اللغات الدارجة أخيراً على السوق والبيت والمعمل ودوائر الدولة ، حتى يستحيي المفصح أن يتحدث إلى الناس بلغـة القرآن !. وهذا ما يزيد شقة التباعـــد إتساعاً بين العرب واخوانهم الأعاجم !. ويستطيع كل منا أن يلمس هذه الحقيقة عن كثب بسؤاله أحد علمائنا من غير العرب عن انطباعاته وهو يتجول في

بلاد العرب .. فسيشكو إليه في كثير من الأسف حيرته من أمر هذه اللغات التي لا يكاد يعي منهـــا شيئاً ، وهو الذي يكاد لا يجهل من لغة القرآن شيئاً !.

أما الشق الثاني فيتعلق بتشجيع العربيـــة في أوساط الأعاجم .. وهو أعسر الأمرين لأسباب ، منها : ان تحويل الاستعمار للكثير من الشعوب الاسلامية إلى ثقافته عن طريق تركيز لغته ، أو تغيير الحرف العربي ، قد ربط مصير هــذه الشعوب باللغات الاستعمارية ، بعد أن صرفها عن لغة القرآن ، حتى بات متعذراً على الأجيال الأعجميــة الجديدة أن تفكر بتغيير هــذا الواقع ، كشأن المنزلق في السفح لا يستطيع أن يتمالك ليفكر بوسيلة للخلاص . ومنها كذلك عجز البـــلاد العربية عن سد حاجة هذه الشعوب الثقافية والصناعية ، فهم كالعرب مضطرون إلى الاتجاه نحو الغرب أو الشرق لتـأمين هذه الحاجات . وإنما يمتد سلطان اللغة بمقدار امتداد حاجة الآخرين إلى التعامل مع أهلهـــا . ولكن .. مهما يكن من شيء فإن للشعوب الاسلامية مع العرب حاجة لا تنتهي أبداً، هي حاجتهم إلى دراسة الاسلام ، ولا سبيل إلى الاسلام إلا عن طريق العربية . ولكن هـــذه الحاجة تقوى وتفتر تبعاً لموقف العرب من الاسلام نفسه ، فكل انحراف عن مُثلـه ، واشتغالٍ عن هذه المثل بالدعوات العصبيــة ، مبعدٌ للاعاجم

عنهم وعن لغتهم .. وليس خبر تظاهرات المسلمين السود ضد العربية في شنقيط ببعيد ، وليست صلتها بهـذه الدعوات العصبية بالأمر الغريب !

وهنا أقولها بصراحة : ان التطورات الخطيرة التي تخض بلاد العرب ، فتزلزل مثلها وقيمها وتفكيرها ، قد حصرت مهمة العمل لنشر العربية بين الأعاجم في هـذه المملكة وحدها ، وبطبيعة الواقع الذي يجعل من هذه المملكة حارسة لحرمي الاسلام ، وبفضل اليقظة التي تتمثل في قيادتها العليا ، أمكن لهذه المملكة أن تعرف طريقها إلى هـذا الواجب العظيم ، فتسلكه في تصميم على احتمال كل تضحية في سبيله . وحسبي أن أذكر من ذلك الجامعة الاسلامية في المدينـة المنورة ، وقـد بلغ طلابها قرابة الألف ، أربعة أخماسهم وافدون من خارج هذه المملكة ، ومعظمهم أعاجم ، وقـد بدأت ثمراتها بخريجيهـا ، الذين انتشروا في أنحاء الأرض ، يدعون إلى الله ، ويوسعون رقعة العربية ..

ولكن لا يزال أمام هذه المملكة واجبات أخرى نحو العربية والاسلام .. ما أراها تتحقق على الوجـه الأتم إلا بالمبادرة لإقامة مدارس اسلامية عربية في بلاد الأعاجم نفسها، وبذلك يتاح للعربية أن تنافس لغات المستعمرين والماركسيين

في مواطن غزوها ، ويتاح لعصا الاسلام أن تلقف ما يأفكون في تلك الشعوب الشقيقة .

الأدب المسموم :

ثم يأتي دور هذا الأدب الدخيل ، الذي تعقد له الندوات وتكتب فيه المؤلفات ، باسم الشعر الحر ، والأدب الحر ، واللغة الحرة ... وما إلى ذلك من اصطلاحات ، كشعارات المذاهب الهدامة ، لا يطالعك الواحد منها إلا ملفوفاً بأكفان الحرية !..

فالشعر الحر على الرغم من الضوضاء التي تكتنفه ، والغبار الذي يثار حوله ، لا هم له في النهايات البعيدة سوى تمزيق وشائج الأرحام ، التي تربط بين ماضي التراث الأدبي في لغة القرآن ، وبين الجيل الجديد ، الذي لا تُعنى اليسارية بشيء كعنايتها بقطعه عن الماضي. وليس المقصود بالأدب الحر سوى التخلص من رقابة الأخلاق ، ورقابة القوانين البلاغية ، التي لا يكون الكلام عربياً إلا بها .. وقد شاء الله أن تنكشف مرامي هذه الدعوة الخبيثة عن طريق النماذج التي أخرجها الوجوديون والماركسيون في كتبهم ودواوينهم وقصصهم ، فإذا هي جيفة يفوح منها النتن ، وتغتلي بأنواع الديدان ! ..

وليس المراد بالتحرر اللغوي سوى العمل بوسيلة جديدة

لتحقيق غاية ذلك الانجليزي الخبيث (ولمور) الذي دعا عام ١٩٠٢ في كتابه المسمى (لغة القاهرة) إلى أقلمة الأدب العربي ، عن طريق كتابته باللغة العامية ، واستبدال الحرف اللاتيني بالعربي ، فإذا هو يهز رغبة الظامئين إلى الشهرة ، فراحوا يجترون آراءه ، ويشجعون على استعمال العامية ، بل ينطلقون في تجربة هذه البدعة ، لاعطاء نماذج عملية عنها . ولا يزال صدى ذلك العُواء يتردد بين الحين والحين ، كلما وجد متبنوه آذاناً مستعدة للاصغاء ! ..

حتى الفن لم تكن مصيبته بهؤلاء الهدامين دون ذلك . لقد مسخ التقليد عقولهم وأذواقهم ، فأصبحوا كالوسيط الصالح لنقل أنواع الجراثيم ، فلم يتورعوا عن الدعوة إلى تصوير قصص القرآن على جدران المساجد ، لأنهم رأوا قصص الانجيل والتوراة مرسومة على جدران الكنائس !.. ولم يتهيبوا الإقدام على تلحين القرآن بمرافقة الآلات الموسيقية !. ولا حجة لهم سوى انهم شاهدوا جوقات الكنائس تنشد الانجيل على أنغام البيان والأرغن !.. ومع ذلك لا يستحيون أن يزعموا انهم بذلك يخدمون القرآن .

بين الالتزام والفوضى :

وهنا لا بد من كلمة في تحديد موقف الفكر الاسلامي من موضوع الالتزام والفوضى .. وقد كثر الحديث عن هذا

الموضوع بالنسبة للأدب واختلفت الآراء فيـــه ، اختلاف أصحابها وأهوائهم . والذي نقطع به في يقين هو أن مجرد ذكر (الأدب الاسلامي) كاف للدلالة على امتيـــازه أو استقلاله فـــالشيء – أي شيء – لن يكون اسلامياً حتى ينطلق من مفهوم الاسلام ، ولا شيء في الوجـــود إلا وله في الاسلام حكم الحل أو الحرمة ، أو الإباحة أو الكراهـــة .. والمفكر المسلم لا يستطيع أن يقطع بصلاحية شيء أو فساده في معزل عن دينه ، الذي امتزج بروحه ودمه وأعصـــابه ، فطبيعي إذن أن يحمل أدبه لون عقله وقلبه ، لأنه أشد الناس شعوراً بالمسئولية عن كل ما يقول ويعمل ، ولذلك جاء الأدب الذي جرى على لسان الرسول وتلاميذه الأولين أخلد فنون الأدب العربي جميعاً ، لأنه انعكاس لأعمق التجارب الروحية والعقلية ..

ومن ثم يتضح ان الأدب الاسلامي أدب أصيل ذو هدف، لا يألف طريق الاستهتار الذي لا يبـــالي العواقب .. وكل أديب لا يكتب أدبه بمداد روحه لن يكون أديباً اسلامياً ، ولو طاف بالكعبة سبعين شوطاً لا سبعاً .. ولو سمى نفسه أو سماه غيره إمام المسلمين ! .. وقد نقرأ للأديب الواحد ما يدل على اسلاميته، ونقرأ له شيئاً آخر يدل على فوضويته، فالمتنبي عندما يقول لأحد ممدوحيه :

أنا مبصر ، وأظن اني حـــالم !
من كان يحلم بالاله فاحلمـــا !

فهو قرمطي لا صلة له بالاسلام ، ولكن .. عندما نقرأ مثل قوله في طاغية مصر ومن حوله من المهرجين :

سادات كل أنــاس من نفوسهمُ
وسادة المسلمين الأعبدُ القَزَمُ !
أغاية الدين أن تحفوا شواربكم
يا أمة ضحكت من جهلها الأمم !

نحس حرارة أنفـــاسه ، وهو يتحرق ألماً على المسلمين ، تلفح وجوهنا وتهيج مشاعرنا ، حتى إذا قرأنا مثل قوله في كافور نفسه :

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا
إلى عصره إلا نرجّي التلاقيـــا

حكمنا بأننا أمام مهرج لا يملك أي حس اسلامي ..

وهكذا يتقرر ان الادب إمـــا اسلامي تنظمه العقيدة الصافية ، فهو يفيض عنها طبيعياً عفوياً ، كما يفيض الأرج من أكمام الورد ، والشعاع من قرص الشمس ، لأنها لا يملكان غير العطر والضوء .. وإما فوضوي ينطلق عن الهوى العابر ،

تغلب عليه الفطرة فيرسلها كلمة حق تموج بالحرارة والصدق ، وتقهره الشهوة فإذا هو يعبث بالنفوس كالراقص الذي يستهدف تصفيق النظارة !..

ونخلص من ذلك إلى القول بأن عبقرية الأدب الاسلامي لا تتمثل في لون دون آخر من ألوان العمل الأدبي ، فالشعر ، على تعدد فنونه وقوالبه ، صالح لأن يكون معرضاً للروح الاسلامي . والنثر كذلك .. بقصته ومقالته ، وخطبته ، ورسالته ، وخاطرته ، وحواريته ، وسائر فروعه الفنية ، لا يبلغ ذروته الجمالية إلا في ضوء هذا الروح . ولهذا كان لزاماً على دعاة الاسلام ، ولا سيما رجال القمة من قادة شعوبه ، أن يوجهوا عنايتهم إلى توكيد هذا الاتجاه ، وتثبيت هذه الخصائص في كل مجال تتحرك فيه الأقلام . فالبرامج المدرسية يجب أن تنطلق من ينبوع العقيدة ، ثم تجري في جميع موادها ، جريان الأرواح في الأجساد . وطبيعي أن البرامج ، بالغة ما بلغت من الكمال ، لن تؤتي ثمرتها الصحيحة إلا إذا تولاها المدرس ذو العقيدة الصحيحة . وقد بات متفقاً عليه في ميدان التربية أن المعلم الصالح يجعل من المناهج الفاسدة وسيلة إلى الصلاح ، على حين أن الفاسد من المعلمين يجعل من أصلح المناهج مباءة للفوضى ، ووسيلة إلى التهديم !..

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاذاعة ، فيجب أن يتمثل

فيها الفكر الاسلامي بكل طاقـــاته ، سواء عن طريق الأحاديث أو المحاورات ، أو التعليق السيامي ، أو الأناشيد التي يراد بها الترفيه البريء .. فالأكاذيب التي تفتنّ باختراعها مصانع التضليل الاذاعي ، لا تعرف طريقها إلى الإذاعـــة الاسلامية ، ذلك لأن الأولى لا تستهدف سوى استغلال سذاجة الجماهير ، لإخضاعها إلى جنود الشيطان ، أما مهمة الاذاعة الاسلامية فتقويم العقول ، وتصحيح الضمائر ، لإنشاء الجيل الذي يصلح للنهوض براية الله وإقامة ملكوته. فلا سبيل إذن لاقترابها من منحدر الاذاعـــات الأخرى ، لاختلاف المنطلَق الذي تصدر عنه كل من الاذاعتين ، ولا سيما في مجال الفنون الترفيهية ، التي تأخذ منه كل منهما مـــا يتناسب مع رسالتها الاجتماعية . وشتان بين رسالة تتخذ من الإذاعة مطية لافساد العقول ، ونشر الفجور المخطط في مؤتمرات الصهيونية الدولية ، وبين رسالة أوحى بها الله (لإنقاذ عباده من عبادة العباد إلى عبادته وحده .. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام) كما وصفها أحد جنودهـــا الأولين (ربعي بن عامر) !.

ولا يمكن لشيء أن يخرج الاذاعة الاسلامية عن رسالتها مهما تبلغ قحة الخصوم ، فإذا صاح هؤلاء : أعل هبل ، أعل هبل .. كان رد هذه : ألله أعلى وأجل . وإذا نادى أولئك :

لنـا العزى ولا عزى لـكم ، أجابت هـذه : ألله مولانا ولا مولى لـكم .. وشتان بين الداعيين : داع إلى الجنـة وداع إلى النار .

إن وطن الاسلام في محن لا عداد لهـا ، تمزقه المخالب من كل جانب ، فهو بحاجـة إلى فدائيين لا إلى رقاصين .. وإلى مؤمنين يعرفون طريقهم إلى الله ، لا إلى مضللين يضربون في كل متاه .. وفي تجربة باكستان الأخـيرة ألف دليل على هذه الحقيقة .

إن كلمـة (لا إله إلا الله) جعلت من القلة قوة لا تثبت أمامها كثرة ، وأحدثت في الأرض الطاهرة من العجائب ما لم تعرف مثله الدنيا ، إلا في بدر وأُحـد وحنين واليمامة والقادسية .. ولو استمرت دفقة الإيمان في سبيلها إلى النهـاية لرفرفت راية الاسلام على هضبات (سرينغار) في أقصر زمن ممكن .. فما بالنا في فلسطين نكتفي بـ (عائدون) دون أن نشحن نفوس أبنائهـا باللهب ، الذي يحرق الضعف ويلتهم الظالمين !!

اللهب الذي لن يأتي من موسكو ولا بكين،ولا من عصبية أبي جهل والجاهليين .. ولـكن ينبثق من الفطرة المؤمنة ،التي نريد لها مكاناً في عليين !.

واخـــيرا :

هذه خطوط لأمان ، لا أشك في أنهـــا تدغدغ أجفان الكثيرين من المفكرين الاسلاميين ، ولكنهم لا يتوقعون لهـا تحقيقاً إلا إذا وجدوا الدولة الاسلامية التي تؤمن بهـا أولاً ، وتمدها بالرعاية المحببة ثانياً . وفي اعتقادي أن ليس ثمة مكان أحق باحتضانها من مهبط الوحي الأول ، ولا مؤسسة أجدر برعايتها من رابطة العالم الاسلامي ، بمكة المكرمة ، والجامعة الاسلامية في المدينة المنورة .

وأقرب السبل لإخراج هـذا الحلم إلى حيز الواقع تأليف لجنة تحضيرية تتولى الدعوة إلى مؤتمر للأدباء الاسلاميين، يخطط لمستقبل الأدب ، الذي لا بد منه في هذه الفترة الحرجـة من حياة العالم الاسلامي ..

وعن هـــذا المؤتمر ينبغي أن ينبثق النادي الدائم باسم (نادي القلم الاسلامي) أو نحو ذلك من العنوانات الموحيـة بمهمته . وإلى عضويته ينتسب كل مؤمن بأهدافه التي يجب أن تحدد في شكل دستور مستوحى من التصور الاسلامي المحض، بحيث يصبح كل عضو منتسب ملتزماً بإقامة أدبه على أساس من ذلك الدستور ، حتى إذا انحرف عن طريقها سلب حق عضويته في ناديها ..

وسيكون من مسببات القوة لهذه المؤسسة الأدبية أن يجد أعضاؤها التشجيع الذي يمكنهم من نشر المؤلفات ، واذاعة الأفكار، ومخاطبة الجماهير عن طريق وسائل الاذاعة ،في برنامج خاص موقوف على النادي وحده ، وعن طريق المجلات القوية التي تستطيع أن تضاهي باخراجها ومادتها أقوى المجـــلات العالمية .

ومفروض أن يكون نادياً اسلامياً يضم شمل أدباء الاسلام في سائر أقطـارهم ، ويجمعهم في مؤتمرات دورية ، لدراسة ما جدّ وما ينبغي أن يجد من العمل . وبديهي ان هذا يقتضي وجود مكتب دائم للنادي يظل في انعقـــاد مستمر طوال العام ، ليعمل على تحقيق مقرراته واستطلاع آراء أعضائه في كل طارىء، وليتولى تنسيق مجهوداتهم وذلك بترجمة مباحثهم الهامة إلى أهم اللغات الاسلامية ، ليتمكنوا من أداء واجبهم الأكبر في توعية الشعوب الاسلامية توعية تبصّرها بما يراد لها ، وما يجب عليها ، وتحصّنها من الوقوع في حبائل الختالين من أصحاب الشمال ، أو أذناب اليمين .

ولا يفوتنـــا هنا أن نذكّر بالمرحلة الجديدة من تاريخ الجماهير ، مرحلة التحرر من الأميــة ، التي ستأتي على آخر معاقلها . ومعنى ذلك أن رواجاً غير عادي قد بدأ يحدث في

سوق الأفكار والمذاهب ، فعلى القلم الاسلامي أن ينهض بمسئولياته في توفير مواد القراءة الصالحة لهذا الفيض البشري، المستعد للتأثر بكل ما يقرأ . إذ ليس من الخير أن تحرر الشعوب من قيود الأمية ، لتسلم فريسة هينة إلى ذئاب الالحاد والفساد ، وأعداء الفضيلة والحرية !..

- ولكي تستقيم خطوات هذا النادي في طريق الاسلام الصحيح ، لا مندوحة من الاسترشاد برأي الشريعة الخالدة ، في كل ما يعرض للعالم من فلسفات ونظم وأعمال .. وهذا يقتضي أن يقوم إلى جانب (نادي القلم الاسلامي) (مجمع البحوث الاسلامية)[1] الذي يتألف على الطريقة نفسها ، من كبار خبراء الشريعة المطهرة في العالم .. ويكون لمقرراته صبغة الفتوى الملزمة ، التي ترفد حملة الأقلام بالوعي الفقهي ، الذي يعصمهم من الانحراف والزيغ ..

هذه الاقتراحات نعرضها ، ونحن على علم تام بثقلها وضخامتها ، ولكننا نؤمن في الوقت نفسه بأنها أسس لا غنى عنها لتنظيم العمل الاسلامي ، الذي لن نعطيه حقه من الأهمية إذا لم نضع كل امكاناتنا في سبيله .

ومرة أخيرة أقول : ليس أحق بتحقيق هذه الأماني من دولة يحمل علمها كلمة التوحيد ، وينهض عاهلها بعبء الدعوة إلى التوحيد ، وفيها الحرَمان اللذان تهفو إليهما قلوب

---

١ – ألقيت هذه المحاضرة قبل إنشاء مجمع (البحوث ...) القاهري.

مئات الملايين من أمه التوحيد ، وفيها إلى ذلك رابطة العالم الاسلامي ، والجامعة الاسلامية .

والله هو المسئول أن يوفقنـــا لاعلاء كلمته ، ويستعمل جوارحنا وأقلامنا في طـــاعته . إنـه نعم المولى ونعم النصـير .

والحمد لله رب العالمين .

●

أُسُس التربية والتعليم
بين المبادئ الإسلامية والمفاهيم الغربية

لا بد للباحثين في علم الاجتماع البشري أن يقفوا على تحديد جامع لتعريف الانسان الذي هو موضوع هذا العلم . وبما أن هذا العلم أصبح مربوطاً إلى حد بعيد ، وفي الأوساط التربوية خاصة ، بمفاهيم الثقافة الغربية ، قديمها وحديثها ، لذلك كان أول ما يواجههم من وصف للانسان ماثلاً في التعريفات التالية :

الانسان حيوان ناطق .

الانسان حيوان ضاحك .

الانسان حيوان اجتماعي .

الانسان حيوان منتصب القامة .

الانسان حيوان ذو راحة ملساء .

الانسان حيوان ذو إبهام .

ويريدون بالنطق الكلام أو التفكير أو كليهما . ويعتبرون الضحك خاصاً بالانسان ، ويحسبون التعاون الاجتماعي محصوراً بالجنس البشري وحده ، وهي آراء لا تعدو حدود الظنون ، إذ ليس من حق الانسان أن ينكر على الحيوانات الأخرى اشتراكها في هذه الخصائص على وجه من الوجوه ، وقد لاحظ بعض الاخصائيين في دراسة الحيوان ان لكل فصيلة لغة تخاطب خاصة ، فلمَ لا يكون له تفكيره الخاص ، وضحكه الخاص ، ولغته الخاصة . وفي الناحية الاجتماعية لا يبدو الانسان أكثر تعاوناً من الحيوان ، ولنا في النمل والنحل والطير آيات على ذلك بينات .

أما امتياز الانسان بانتصاب القامة فظاهر من حيث تمكينه من القيام بالأعمال المدنية ، التي ما كانت لتتاح له لو كان من الزواحف أو الطوائر أو ذوات الأربع . وكذلك الشأن في خلو راحته من الشعر، وفي اختصاصه ببروز الإبهام ، لأنهما يساعدانه على القيام بدقائق الصناعات ، حتى انهم ليسمون الإبهام عضو المدنيه ، كأنما كان هو المساعد الرئيسي على أحداثها ..

على أن القدر المشترك بين هذه التعريفات جميعها إجماعها على حيوانية الانسان ، فهو مهما يكن من أمره وامتيازاته لا يعدو كونه حيواناً !.

وقبل أن نعمد إلى محاكمة هذا الرأي ، ننظر في التعريف الاسلامي لهـــذا المخلوق ، وبذلك يسهل علينا الدخول في موضوع الفرق بين نتائج كل من النظرتين في نطاق التربيـــة والتعليم .

يقول ربنا جلّ وعلا :(ولقد كرمنا بني آدم .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . و (لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم) و (إذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). و(له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) .

فالإنسان في الاسلام إذن هو المخلوق الذي كرمه الله ، وجعله في أحسن صورة وقيمة ، – والتقويم ذو علاقة وثيقة بالقيمة المعنوية – وقد حظي بالنفخـة القدسية من روح الله ، فاستحق بذلك تكريم ملائكته في الملأ الأعلى ، حتى حسده إبليس ، وناصبه على ذلك العداء ، وهو محفوف دائمـاً وأبداً بحفظ الله ورعايته .

فالقول بحيوانيته بعد كل ذلك التميز والتكريم والتفضيل يجب أن يقتصر على جانب واحد ، هو المشاركة في التركيب العضوي ، واشتقاقه مع الحيوان جميعاً من مصدر واحـد هو مادة الأرض .. كما يشترك الماس والذهب والصُّفر في كونها جميعاً من هذه الأرض ، ولكنها مع ذلك تتفاوت قيمة وأثراً

وخواصّ .. حتى في الجنس الواحـد نرى التفاوت الواسع ، الذي يجعل البون بين أحـــد أفراده والآخر كالبون بين الجنس والجنس . وما ألطف قول المتنبي لسيف الدولة :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله الآخر :

بغاث الطير أكثرها ولودا وأم النسر مِقلات نزورُ

وفي أساطير اليونان يزعم هوميروس ان خنزيرة ولبؤة التقتا على ضفاف العاصي ، فجعلت الخنزيرة تفخر على اللبؤة ، حتى قالت لها: انني ألد في كل عام أربعين ، وأنت لا تلدين إلا واحداً. فقالت لهـــا اللبؤة : « أجل .. واحد .. ولكنه أسد » !.

ومن هنا نخلص إلى تقرير الحقيقة التالية : ان الاختلاف في تقويم الانسان بين النِظرة الغربية ، والواقع الاسلامي ، يستتبع اختلافاً مماثلاً في طريقة تربية الانسان وفي تعليمه ، وفي تحديد الهدف الأقصى من التربية والتعليم ، بالنسبة نفسها التي تقوم بين الانسان بصفته حيواناً ، وبينه بوصفـه مخلوقاً ممتازاً كرمه الله ونفخ فيه من روحـــه ، وسخر له ما في السموات والأرض ، واسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنة .

والآن ننتقل خطوة أخرى لدراسة الطرائق المختلفـة التي

عولج بها هذا الانسان في كنف الاسلام ، وفي ظل الحضارة
غربية .

دنية والمهن :

إن تطور الحياة الانسانية قضى بتقسيم الأعمال بين أصناف البشر حسب مواهبهم أو رغباتهم ، وهكذا أصبحت الأعمال المدنية عبارة عن مجموعة من المهن القائمة على التخصص . فليس ثمة من انسان سويّ إلا وهو منتظم في إحدى هذه المهن . وقد بدأت المهن بسيطة محدودة ، ثم شرعت تتفرع وتتعقد تبعاً للتجارب البشرية ، وتبعاً للكشوف العقلية والعلميـة ، حتى باتت المهنـة الواحدة مهناً متعددة ، وبذلك تكاثر ذوو التخصص ، كل في فرعه الذي انقطع إليه ، دون أن يكون هناك انفصال تام بين مجموع هذه الاتجاهات ، ذلك لأن ثمـة قدراً مشتركاً ينتظم الجميـع ، هو انهم جميعاً يعملون في خدمة المدنية ، وتطوير وسائل الحياة العامة ، للسير بالمجتمع البشري نحو الأهداف العليا ، وهذا التحرك العام نحو الأعلى فالأعلى من المستويات المدنية ، ليس سوى نتيجة للحوافز الفطرية الاندفاعية التي ميز بها الله تبارك وتعالى هذا الانسان ..

ومعلوم أن لكل مهنة مجالهـــا الذي تباشر في نطاقه عملها .. فالزراعة مثلاً مجالها الأرض وما يتصل بها من أدوات الحرث والزرع .. والصناعة مجالهـا المنتوج الزراعي ، أو

خامات الأرض التي تحولها إلى مصنوعات توفر متاع الانسان . والتجارة مجالها ما ينتجه الزارع والصانع ، لتصريفه وتوزيعه على المستهلكين . وهكذا القول في كل مهنة .

والتربية والتعليم إحدى المهن المدنية ولها مجالها ، ولكنه يختلف عن المجالات الأخرى اختلافاً كبيراً من حيث الموضوع والهدف . فبينما نرى موضوع المهن هو مادة الأرض الجامدة ، وهدفها امداد الانسان بحاجـــاته الغذائية أو الكسائية أو الترفيهيـــة ، وتيسير وسائل الاستمتاع بكل ذلك ، نجد موضوع التربية والتعليم هو الانسان نفسه ، وهدفهما إعداد هذا الانسان لإدارة موارد الأرض ، وتوجيهه إلى الطريقة الفضلى ، للانتفاع بما سخر الله له من طاقاتها ومتاعها على خير وجه .

ومن هنا كان الفرق كبيراً أيضاً بين طبيعة المهن المادية ، ومهنة التربية والتعليم ، ذلك لأن للمادة خصائصهـا الثابتة الملازمة لها في أي مكان من الأرض ، فالنتيجـة التي نحصل عليها من علاج المادة على وجه ما ، هي التي نحصل عليها دائماً عند استعمال الطريقة نفسها في علاج هذه المادة .

أما الانسان وهو موضوع التربيـة والتعليم ، فكما ان له خصائصه المشتركة بين أفراد الجنس ، كذلك له مميزاته الفردية التي تجعل نتيجة الأسلوب في فرد ما غير مؤدية إلى النتيجـة نفسها في فرد آخر . وهذا ما يجعل مهمة المربي المعلم غاية في

الدقة والعسر ، إذ يضطره إلى دراسة كل نفس من تلامذته على حدة ، وملاحظة تطوراتها ومميزاتها واستعداداتها ، ليعاملها بالأسلوب الذي لا ينفع فيها غيره .

الانسان والمادة :

أما السبب في هذا الاختلاف بين اسلوب المعالجة للمادة ، وأسلوب المعالجة للانسان ، فهو عائد كذلك إلى الفروق في تركيب كل منهما . فالمادة مثلاً – على اختلاف أشكالها – تتركب من عناصر مادية متشابهة في الجنس متفاوتة في النسبة. أما الانسان فهو ذو الكيان الممتاز الذي أراد الخلاق العظيم أن يجعله عالماً وحده . فهو جسم وروح وعقل . أما الجسم فهو من مركبات المادة نفسها ، يتأثر بها في غذائه ودوائه وأدوائه ، فلا غنى له عنها ما دام على قيد الحياة ، وأما القسمان الآخران فهما مباينان لطبيعة المادة ، ليس فيهما شيء من مركباتها ، لذلك لا يخضعان لأحكامها ولا يدخلان في حسابها ، ولكنهما مع ذلك يتفاعلان مع طاقة الجسم بشكل يجعل لكل من الثلاثة أثره في الآخر ، وانفعاله به .

فالروح ، وهي هبة الله التي نجهل ماهيتها ، ونلمس آثارها وفاعليتها ، كما نلمس آثار الكهرباء دون أن ندرك كنهها ، هي أساس الكيان الانساني ، فكل سلامة في كيانها سلامة للرفيقين الآخرين ، وكل فساد أو التواء يصيبها تنعكس آثاره

على رفيقيها ، فينتج عن ذلك كل ما يعانيه الانسان من قلق وشقاء ..

ومن هنا كانت عناية الذكر الحكيم والسنة النبوية في تربية هذا الجانب الهام من الانسان ، فالعبادة والإكثار من ذكر الله ، والتأمل في ملكوته .. ونحو ذلك من التوجيهات الإلهية أهم الوسائل فعالية في تهذيب الروح وإرهافِها وربطها بالمعاني الربانية ..

وبمقدار ما يتوفر للروح من هذا الصفاء الحي واليقظة السامية يكون تأثر العقل واتجاهه في طَريق السّداد ، فالعقل ، وهو القوة التي لها خاصة الإدراك ، بها يميز الانسان حدود الأشياء ، ويعين خصائصها ، ويستنبطُ فوائدها ، ويؤلف ما يشاء من مركباتها ، وبها يتصور المباينات والمشابهات بين الأشياء المختلفة ، فيقيس المجهول على المعلوم والغائب على الحاضر.. هذا العقل قابل للنفع والضر، والتهديم والبناء ، وقد يستحيل طاقة طاغية مدمرة إذا لم يكن عليه رقيب من الروح الفاضلة ، يضبط حركاته ، ويحدد له مجال العملِ ليظل دائماً في خدمة الحقيقة ، بنّاءً للمدنية ، كشافاً للمنافع التي بثّتها حكمة الله في سفلي هذا الكون وعلويه. وبقدر ما تتزن نظرة الروح وأحكام العقل تكون سلامة الجسم ، لأن في هذا الجسم طَاقاته الغرزية التي أُودعها من

قبل خالقه، لتكون دوافعه إلى العمل والتناسل وطلب المنافع والدفاع عن الذات . وسلامةُ هذا الجسم إنما تتوفر في اتزان دوافعه الغرزية بحيث لا تتجاوز حدود الواجب ، فإذا فقد الجسم ضوابط العقل السليم والروح الفاضلة ، تفجرت غرائزه على غير هدى فدمّرته وما حوله .

وهكذا يتضح لنا أن كل فساد يتعرض له العقل والجسم إنما يعود في الحقيقة إلى فساد الاتجاه الروحي الذي قلنا إنه أساس الكيان البشري . وإذا كان التزام الهدي الإلهي هو الكفيلَ باستقامة الروح وما وراءهـا من العقل والجسم ، فلنتذكر هنا ان الروح قد تنحرف عن هذا الخطّ الصحيح ، إما بإهمال العبادة والذكر والتأمل ، وإمـا بإهمال الحياة المادية مطلقاً ، إذ تغلو في الزهد والحرمان . فتخـالف عن طريق الله ، الذي أحب للانسان أن يجمع بين طيبات الروح والجسد معاً ، في حدود الاعتدال الذي لا يطغى فيه جانب على جانب .

ولا عبرة هنا في شذوذ بعض المفكرين الاسلاميين، كالإمام الغزالي ومن جرى على خطّته من رجال التصوف ، وبخاصّة في عصور الدول المتتابعـة ، التي عرفت بعصور الانحطاط ، إذ يقرر ، وهم وراءه : ان (أعلى مقامات التوكل هو أن يلتحق الانسان بالبوادي دون زاد ، ثقة بأن يصبره الله على

الجوع ، أو ييسر له ما يقوته من الحشيش ، أو يثبته على الرضا بالموت جوعاً ، ويلي ذلك مقام الذي يلتزم بيته أو المسجد انتظاراً لما يسوقه الله إليه من الرزق)[1] ..

وهو في تقريراته هذه غافل عن قول الله عزّ وجل عن لسان صالحي بني اسرائيل لقارون :(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا ..) بل غافل عن أمر الله القاطع المانع لهذه الأمة بقوله جلّ وعلا (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم ..) وقد ذهب في تفسير الزهد الاسلامي غير مذهب السلف الذي تؤكده عائشة (رض) حين رأت رجلا يسير متماوتاً ، فسألت عنه فقيل لها : انه زاهد . . ! فقالت : « كان عمر أزهد الناس ، وكان إذا مشى أسرع ، وإذا تكلم أسمع ، وإذا ضرب أوجع » . ولا ريب أن الأخذ بمثل هذه التوجيهات المنحرفة لا محصولَ له في النهاية إلا تحويل الآخذين به إلى مجموعة من الكسالى والدراويش يعيشون عالة على أصحاب النشاط .. ولا أحسب اسرائيل والشيوعيين وأذنابهم من الاشتراكيين يريدون من المسلمين أكثر من هذا !!

على أننا لا نشتد في القسوة على أصحاب هذه الآراء ، بل

---

١ - الأحياء ج ٤ ص ٢٥٩ ، مطبعة الحلبي .

ربما وجدنا لهم عذراً ، عندما نتصور ان انهيار الأخلاق من حولهم وانتشار المفاسد في بيئاتهم ، مع شعورهم بالعجز عن الاصلاح ، هي التي دفعتهم إلى هذا الغلو في الدعوة إلى الزهد والحرمان ، كما يحدث في كل دعوة متطرفة ، عندما تكون ردّ فعل لواقع متطرف .

هداية وتجارب :

ومن أجل استبانة الأصول التربوية في واقعها الراهن ، وفي واقعها الاسلامي الذي ينبغي أن ترتفع إليه ، لا بد من التذكير بأثر التصور البشري في أساليب التربية وعواملها .

لقد قضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تبدأ الحياة الانسانية بسيطة ، ثم تأخذ في التركيب والتداخل والتعقيد ، بالقدر نفسه الذي تسجله تجاربه العقلية والمدنية في سلم التطور . وذلك هو شأن التربية والتعليم تماماً ، فقد بدأ النشاط التربوي أول ما بدأ في نطاق الأسرة ، تتولاه الأم أثناء غياب الوالد في السعي للرزق ، فإذا عاد إلى المأوى ضم تجاربه اليومية إلى عمل زوجه ، ومن كلا المجهودين مضافاً إليهما خبرات الأسَر الأخرى، يتولد ما يمكن تسميته بالمبادىء التربوية ، التي بمجرد دخولها نطاق المرحلة الحضارية ، تغدو نظاماً مقرراً ..

ذلك هو التصور العقلي لأصول التربية البعيدة ، ولكن هذا التصور يظل ناقصاً في نظرنا نحن المؤمنين ، حتى نضم

اليه عنصر الوحي ، الذي أوضحه الله عز وجل في وَصاته للانسان الأول ، يوم أهبطه وزوجه إلى الأرض: (فإمّا يأتينكم مني هدى فمن تَبِع هداي فلا يضل ولا يشقى) ، فالانسان إذن قد نزل الأرض مزوداً بالمبادىء الرئيسية التي منها ينبثق كل تدبير حكيم يصون حياته من الشقاء والضلال !. وقد تعرضت هذه المبادىء لكثير من الزلازل التي يحدثها البغي الصادر عن تضارب المصالح ، ولكنها ظلت موجودة بموجب وعد الله ، تتناقلها البشرية عن أنبيائه جيلاً فجيلاً ، فهي أشبه بمنارة السفن يلفها الضباب، أو تحجبها الأمواج إلى حين، ثم لا تلبث أضواؤها أن تعود لتعيّن الطريق .. هكذا كانت ، وهكذا هي الآن ، وهكذا ستبقى غداً ، لكي لا يكون للناس على الله حجة ..

فالتجارب البشرية إذن متعاونةٌ مع مبادىء الهداية الإلهية ، هي المصدر الرئيسي لأصول التربية في الأجيال الانسانية ، وعندما نعود ببصيرتنا إلى واقع الانسان قبل المراحل الحضارية الكبرى تتبين حقيقة هامة ، وهي أن الأسرة تكاد تستقل بجميع أعباء التربية ، فهي التي تلقن الطفل أصول العقيدة ، ومبادىء السلوك ، وتعين له حدود الواجب والمحظور ، وتحدد له علائقه مع الناس والأرض

والحيوان والحياة كلها .. وهي موحيات تظل ملازمة له في الغالب طوال حياته ، لأنه يعيش في بيئتها السنين الطوال ..
ومن هنا جاء القول : ان طفولة الانسان البدائي تستمر حتى يستطيع الاعتماد على نفسه في طلب القوت ، وفي الدفاع عن الوجود ، وفي تأمين الضروريات .. ويستحيل أن يتوفر له ذلك قبل العشرين ، إذ يكون قد باشر بناء حياته الأسرية الصغيرة في نطاق الأسرة الكبيرة ، التي لا تزال تتسع وتمتد حتى تكوّن القبيلة . وعلى الرغم من بعض الاستقلال الذي يتمتع به هذا الباني الجديد ، لا يستطيع التخلص من سلطان المبادىء العامة التي تنتظم أسَر القبيلة جميعاً ..وهكذا تستمر الوحدة التربوية قوية متماسكة حتى تتوزعَ القبيلةُ قبائل ، وحينئذ يبدأ التباعد الفكري في الاتساع ، تبعاً لاتساع الخبرات العملية في المجموعات المختلفة ، ثم تتدرج الحياة في التطور المدني حتى ينتهي الأمر إلى مرحلة الدولة ، وحينئذ يبدأ تركيبٌ جديدٌ للمجتمع ، إذ تتخلى الأسرة للدولة عن الكثير من مهامها الأولى ، وفي مقدمتها التربية والتعليم ، اللذان يتحولان إلى نظام مركزي يوحد طرق التوجيه الخلقي والفكري ، فينشأ عن ذلك المجتمع الذي نستطيع تسميته مجتمع الدولة ، في مقابل ذاك الذي نسميه مجتمع الأسرة .

وفي ظل المجتمع الجديد تتعدد مجاري التربية وتتعقد

بصورة مطردة متموجة . فالمدرسة نفسها أقسام متفاوتة الأثر ، تبدأ برياض الأطفال ، وتنتهي بالجامعة ، وكلها مُنافِسٌ للبيت في تدبير هذا الانسان ، الذي هو مدار الحضارة والمدنية ، وقد استطاعت هذه المنافسة أن تقلص ظل البيت عن ولده ، حتى قصرت طفولته على السنتين الأوليين من حياته ، ثم ما زالت تنازعه على بقية علاقته بهذا الولد حتى انتزعته من أحضانه نهائياً ، فلا يكاد يبلغ هذا سن الحداثة حتى يكون تشكله الخلقي مخالفاً ، إلى حد بعيد ، لما ألفه في بيته !.

ثم تأتي العوامل التربوية الأخرى ، التي نعد منها في العصر الراهن الكتاب ، والسينما ، والراديو ، والتلفزة ثم الرحلات التي صغّرت مِساحة الأرض ، حتى بات في وسع أكثر الناس أن يلابسوا حياة الشعوب البعيدة ، بصورة عملية ، وبقليل من النفقة والجهد ، بعد أن كانت معرفة هذه الشعوب لا تتاح للانسان القديم إلا من خلال الأوهام ، ولا تتيسر للانسان المتمدن ، فيما قبل عصر البخار والكهرباء والذرة ، إلا من خلال الكتب والسماع .

وهكذا يعمل الزمن عمله العميق في تطوير وسائل التربية ، حتى تكاد تخرج عن سلطان الانسان ، الذي يجد نفسه كل يوم أمام تيار جديد ذي أثر بالغ في حياته .

على أن هذا التفاوت بين المجتمع القديم والمجتمع الجديد ، مهما يبلغ من الشمول والسعة ، لا يستطيع القضاء على القدر المشترك بينهما ، ما دامت المسيرة المدنية جارية في طريق الفطرة ، وإنما تقوى صلتها أو تفتر تبعاً لموقف الدولة من روابط الماضي ومثله الروحية ، وهذا ما نشاهده جلياً بين مجتمعين . أحدهما طبيعي أتيح له أن يضبط سلوكه وفق سنن الفطرة ، يأخذ من الماضي ما ثبت خيره ، ويستنبط للآتي ما يرجح نفعه ويدفع ضيره . وآخر ثوري يريد قادته اقتلاع الأمة من جذور الماضي كله، ليدفعوها إلى معركة الحياة مجردة من كل خبرة أو ُهوية ، لأن المجتمع البشري في نظرهم لا يسمو عن مستوى الجراذين الغِينية ، التي يجرب بها الطب نظرياته ، فكلما أخفقت تجربة بدؤا أخرى وهم مع ذلك لا يتحرجون من الاعتراف بأنهم إنما يجربون !.

على ان انحراف المدنية عن سنن الفطرة في المجتمعات الغربية غير الثورية قد ضيق مساحة الاختلاف بينها وبين الثورية نفسها ، من حيث الأثر التربوي ، ولا سيما بعد اقتحام المرأة ميدان العمل مع الرجل ، فقد أوجد هذا التطور وضعاً خطيراً في حياة الأسرة ، إذ اضطر الأبوان أن يعهدا بطفلهما إلى المحاضن ، فلا يراهما إلا في ساعات ما بعد العمل ،

حيث يكونان في حالة من الإنهاك لا تترك أي مجال للتعاطف.. ثم ما إن يتجاوز الطفل سن الرضـــاع حتى يسلم إلى رياض الأطفال ، ثم إلى المدارس الأخرى فيما بعـد ، حتى إذا بلغ سن الرشد كان عليه أن يفارق أهله ليخوض معركة العيش منفرداً ، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى .. وكثيراً ما يضرب الزمن بينه وبين ذويـــه فلا يلتقيان إلا عن طريق الاتفاق .. وقـد حدثني المرحوم الدكتور مصطفى السباعي ذات يوم عن بعض هذه النتائج ، فذكر لي ان في لندن اذاعة ليلية خاصة بموضوع الأسرة ، تكاد مهمتها تنحصر في الاعلان عن أن فلاناً من الآباء أو فلانة من الأمهات ، قـــد نقل إلى المستشفى في ساعاته الأخيرة ، وهو يتمنى أن يشاهد ولده فلاناً الذي فارقه منذ كذا وكذا من السنين ، فالاذاعة ترجو من الابن تحقيق أمنية أبيه ، وممن يعرفه أن يبلغه هـذا الرجاء !.

وطبيعي ان وضعاً كهذا لا يمكن أن يدع للبيت كبير أثر في توجيه الفرد ، فضلاً عن توجيه المجتمع .

وقد أحس علماء الاجتماع في الغرب هذا الوضع المنحرف ، فهم يحاولون تداركه بمختلف النظريات واشتات الاقتراحات، وبينها أصوات عالية تنادي بعودة المرأة إلى البيت للحفـاظ

على البقيه الباقية من وجود الأسرة ، وليست هذه الاحتفالات بما يسمونه (عيـد الأم) و (عيد الطفل) إلا صورة مصغرة لهذه المحاولات التي تستهدف إحياء الروابط العائلية ، وإعادة الصلات الفطرية بين الأبوين والأبناء !.

غير أننا لا نستطيع أن ننسى أن المجتمعات الغربيـة – سواء كانت طبيعية أو ثورية – ما كانت لتنتهي إلى هـذا التفكك الشقي ، لولا انصرافها عن أصول الهدي الإلهي في موضوع التربية ، ولا استثني الغرب المسيحي من هذا الحكم ، ذلك لأن الاتجاهات المادية الصارمة قد سلخت المسيحي الغربي عن موحيات دينه ، وحددت صلته به على أساس من الهـُوية، والمشاركات في الاحتفالات الدينية ، دون أن يكون لهذا وذاك أي أثر في سلوكه العملي !. وقـد بدأ هذه المرحلة من حياته منذ بدأ فصل الدين عن حياته العامة ، ولعل أصدق وصف لهذا الواقع كلمة أحد الأمريكيين عن حياة اللندنيين في كتاب له إذ يقول: (ان أهالي لندن يعبدون بنك انكلترة ستة أيام في الأسبوع ، فإذا جـاء اليوم السابع ذهبوا إلى الكنيسة !.) وهو وصف يستمد صدقه من كونه يمثل الحياة الغربية ، لا في لندن وحدهـا بل في كل قطر يدخل في نطاق الغرب .

المنهج الكامل :

يتضح مما أسلفنا أن المثل الأعلى لأصول التربية هو أن يتعانق الوحي مع التجربة البشرية في معاملة هـذا الانسان ، الذي يجب أن يكون الهدف من تربيته هو تأهيلَه للوفـاء بالأمانة التي أبتها السموات والأرض والجبال ، وحملهـا العقل الانساني عن طيب خاطر .

وقد أوضحت كذلك ان من رحمة الله بهذا الانسان أنه لم يدعه لتجاربه وحدها ، إذ علم أنها خاضعة للتفاوت بتفاوت المؤثرات ، معرضة للصواب والأخطـاء ، فزوده بالمبادىء الكبرى ، التي من شأنها أن تعصم ُخطاه من الزيغ والسقوط في حبائل الشيطان !.. وفي سورة لقمان مجموعـة من هذه الأسس التربوية لا مندوحة للعقل الاسلامي عن الاهتداء بنورها في كل عمل يتصل بموضوع التربيـة والتعليم . يقول عزّ وجلّ : (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه ، حمَلَته أمُّه وهنًا على وهن وفصاله في عـامين : أن اشكر لي ولوالديك .. إلي المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما في الدنيـا معروفاً ، واتبع سبيل من أناب إليّ ، ثم إليّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في

صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور . ولا تُصعّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) .. هنا تركيز عجيب لدستور كامل في أصول التربية والتعليم ، يروي الله معظمه عن لسان معلم صالح آتاه الله الحكمة فعمل بها . وإذا كان الوقت غير متسع لاستيفاء البحث في كنوز هذه الآي ، فلا أقل من أن نشير إلى أصولها الكبرى . إن التخطيط هنا يمكن اعتباره قسمين : أحدهما خاص بالفرد من حيث هو كائن بشري ، لا بد له من توجيه إلى المبادىء الأساسية التي تنظم شخصيته .

تبدأ الوصية بالتحذير من الشرك ، لأن التوحيد هو الأصل ، والشرك عارض من الخارج ، والحكمة تحصين الفطرة من ذلك الطارىء الوبيل ، الذي لا ظلم للنفس وللحق أظلم منه ..

وكأني بلقمان قد سكت عن ذكر الوصية بالوالدين لأنها تتعلق بحقه على ولده ، فآثر عليه حق الله وحق الآخرين ، فاستدرك الله عليه بتوكيد هذا الحق ، كما عودنا سبحانه من

الربط بين حقه وحق الوالدين في آيات أُخَر . ثم قيد ذلك بحدود طاعته ، فللوالدينِ على الولد حق البر والرعاية وخفض الجناح ، ولكن ليس لهما أن يفرضا عليه متابعتهما على الشرك ، وما يتصل به من معصية الله . ولكي يصون نفسه من الانحراف عن هذا الخط لا بد له من قدوة عملية يلتزم سبيلها في السلوك ، وقد حدد له هذه القدوة في اتباع المنيبين إليه من الأنبياء والأصفياء السالكين على خطاهم . والبرُ بالوالدين ومتابعة الصالحين مع التوحيد الخالص أساس التربية القويمة التي تضبط سلوك الفرد في الطريق الأمثل . يضاف إلى ذلك تذكره الدائم للمصير الذي هو منته إليه بعد هذه الحياة الزائلة ، حيث يرى كل ما عمله من خير محضراً ، وما عمله من سوء يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً . وأول ثمار هذه التربية تكوين المراقبة الداخلية لأعمال الفرد – وهو ما نسميه بالضمير – إذ يحاول أن يتجنب كل زيغ عن الجادة ، لأن كل حركاته وسكناته تُحصى عليه من قبل اللطيف الخبير ، الذي لا يفوته كبير ولا صغير . ويختم هذا القسم بالصلاة ، التي هي معراجه إلى الملأ الأعلى ، وكأنها مواقف حساب يومي ، يعرض فيها نفسه وعمله على ربه ، فيستغفره لما أصابه من الهفوات ، ويستمده العون على متابعة الحسنات ..

وهنا يأتي القسم الثاني خاصاً بالوصايا الاجتماعية ، وفي

مقدمتهـا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهـذا أمر بديهي ، لأن الانسان الذي زود بكل هـذه الفضـائل أصبح مؤهلاً لخدمة المجتمع بالدعوة إلى كل خير ، والتحـذير من كل شر . ولكن هذا سيعرضه لكل عسير من العقبات ، التي لا سبيل لاجتيازها إلا بالصبر . والصبر بحد ذاتـه بطولة لا يطيقها إلا أولو العزم ، فليكن إذن واحداً منهم ، وليتحمل في سبيل الحق ما تحمله الأولون من أتباع النبيين ، وما يتحمله حتى اليوم أتباعهم بإحسان في سجون الملاحدة والظـالمين ، وإنما تستمر سلامة المجتمع واستقراره في طريق الخير ، بهؤلاء الآمرين بالمعروف النـاهين عن المنكر ، الذين ما خلت منهم أُمة إلا تُودِّع منها .

ومن ثَـم تتابع الآداب الاجتماعية ممثلة في نهيين وأمرين . أما الأولان فالتحذير من الاستكبار والمرح ، وأما الآخران فالحض على الاعتـدال في المشي ، والغض من الصوت عند مخاطبة النـاس .. ويعقب كلاً من القسمين تذييل مؤكد لمضمونه ، بصورة تقنع العقل السليم بالتزام المطلوب : (إن الله لا يحب كل مختال فخور) و(إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وحسب المؤمن أن يعلم كره الله للاختيال والفخر حتى يهجر ملابساتهما من الصعر والمرح ، اللذين يسجلان على صاحبهما فراغ النفس من الفضائل ، وخلو القلب من التفكير بالتبعات

الثقيلة ، التي لا يستطيع تجاهلها مَن كان يؤمن بأنه مسئول عن حركاته وسكناته جميعها . وحسبه كذلك أن يتصور نهيق الحمار حتى تشمئزَّ نفسه من مشابهته ، فيحاول جهده أن يلتزم أدب الاسلام في المشي وفي الكلام ..

وبقليل من التدبُّر الواعي لهذه الوصايا المحكمة ، نتبين أننا تلقاء مخطَّط عميق الغور ، لا أمل بإنشاء الانسان الصالح خارج نطاقه . وانه أشبه بالأعداد الأساسية بالنسبة لعلم الحساب ، فكما أن كل عملية حسابية دقَّت أو جلت تقوم على الأرقام ، الواحد والتاسع وما بينهما، كذلك تنبثق من جذور هذا المخطط كل التفريعات التي تحدد مضمون المناهج وأهدافها، في كل نظام يوضع للتربية والتعليم كما يريده الاسلام .

وإذا كان لكل منهج نماذجه التي تمثل مضمونه في صورة مشهودة ، فالنماذج التي يقدمها هذا المنهج تؤكد أنه الوحيد بين مناهج الدنيا ، الذي أعطى العالم أعظَم رجال التاريخ إطلاقاً بعد النبيين ، فأثبت بذلك انه النظام الوحيد أيضاً ، الذي يضمن إنشاء الانسان الممتاز ، الذي يتحدث عنه فلاسفة الالمان باسم (السوبرمان) .. ومن هو السوبرمان اذا لم يكن ذلك الانسان الذي رباه الاسلام في مدرسة النبوة ، فكان أتقى الناس ، وأعدل الناس ، وأشجع الناس ، وأكرم الناس ، وأعف الناس ، وأشد الناس حين الشدة ، وألينهم

عند الاين، أبعد الخلق عن جهل ، وأرغبهم في علم ، حتى كان منهم أئمة البشرية في علوم الدين والدنيا ، وهذه مؤلفاتهم التي تفوت الاحصاء ، ترينا هم في الفلك كأنهم أربابه المختصون ، وفي الطبيعيات كأنهم غيرها لا يعرفون ، وفي الفلسفة والمنطق وكأنهم أساتذة سقراط وأرسطو وأفلاطون، على حين هم في الدين حملة الهدى ، ومنائر الانسانية وبركات السماء على الأرض.

ولا عجب أن يمتاز الاسلام بهذا المحصول العجيب في نطاق التربية والتعليم ، وهو الذي نعلم من كتابه العظيم : أن الميزة العليا التي كرم الله بها إنسان هذه الأرض ، هي إيداعه نور المعرفة ، وتزويده بروح البحث والكشف ، لـكي يتعرف إلى ربه من خلال آياته ، في نفسه وفي كونياته .

أهداف التربية والتعليم في الاسلام :

ومن هنا ننتهي إلى القول : بأن غاية التربية والتعليم في مستواها الأعلى ، ووفق الطريقة الاسلامية ، أنما هي رعاية النفس الانسانية بتدريبها على تحقيق المنهاج الرباني في تربيــة الروح ضمن تعاليم الوحي ، التي تحرر النفس من كل خوف لغير الله ، وكل عبودية لسواه ، وتجعلها مدركة لرسالتها في الحياة ، التي هي تكوين المجتمع الفاضل القائم على عبادة الله وابتغـاء مرضاته . ثم تربيــة العقل تربية صحيحة ، تمكنه من تحقيق مهمته في استجلاء مظاهر عظمة الله في الكون، وتسهيل سبل

الإفادة ممـــا سخّر الله للجنس البشري في السماء والأرض من وسائل المتاع والانتفاع ، دون ظلم ولا جحود ولا طغيان . ثم تربية الجسم ضمن حدود التوازن المشروع ، ليصان من السرف المتلف ، وليكون قادراً على النهوض بواجبه في صيانة الحق والدفاع عنه بوجه قوى الشر ، التي لا تنقطع محاولاتها لإفساد الحياة . وقد أدرك سلفنا الصالح مفهوم التربية والتعليم على هدي هـــذا المنهج الأمثل ، فالتزموه في عملهم الذي لم يفصلوا فيه بين التربية والتعليم ، إذ كانوا يدركون أن التعليم عندما ينفصل عن مهمة تقويم النفس ضمن حدود الحق والبر سينتهي بصاحبه الى غير الغاية اللائقة بالانسان . وهذا بالضبط ما جعلهم يؤكدون على ضرورة العناية بالروح ، حتى اعتبروها قوام الانسان كله ، كما يقول أحدهم (فأنت بالروح لا بالجسم إنسان) واعتبروا صلاحها إصلاحاً للكيان البشري كله كما يقول الآخر :

هذب النفس بالعـلوم لترقى وترى الكل ، فهي للكل بيتُ
إنمـا النفس كالزجاجة والعقـــل سراج وحكمة الله زيت
فإذا أشرقت فإنك حيٌ وإذا أظلمتْ فإنك ميت

وأهدافهما في المناهج الغربية :

ونحن حين نعرض ملامح المنهج الاسلامي في التربية والتعليم ، مؤكدين على ذلك ، إنمـــا نقصد الى تنبيه العاملين في حقل

التعلـــيم الى ضرورة التفريق بين المنهج الاسلامي ، ومنهج الغربيين في هذا الأمر ، وهو تنبيه لا مندوحة عنه ، بسبب سيطرة المنهج الغربي على جميع طرائق التعليم في العالم الحديث ، وبخاصة في بلاد العرب والاسلام . وقــد سبق أن أشرنا الى المنطلق الذي يصدر عنه الغرب في مفهوم التربية والتعليم ، والآن نحدد هذا المفهوم بأنه يقوم على الأسس العلمانية ، وهي تعني تجريد التعليم من كل أثر روحي ، وحصر الفكر والنفس في نطاق الواقع التجريبي وحده!! فالإيمان بالله والوحي واليوم الآخر وما إليها من مقومات الدين الإلهي أمور ملغاة في نظر المنهج العلماني ، لأنها في زعمه لا تخضع للتجربة المادية في مخابر العلم ! ومن هنا كانت غاية التعليم والتربية بحكم هذا المنهج هي تركيز القوى الانسانية على موضوع المتاع الأرضي ، دون نظر الى مــا وراءه من عالم الغيب !. ولـكي نلم بنتائج هذا المنهج في نفس الفرد والجماعــة نتذكر أن الفرد العادي الذي رُبي وتعلم على هــذه الأسس في الغرب والشرق ، قد استحال مخلوقاً ممزق القوى لا عمــل له سوى الضرب وراء الشهوات واستحداث المتع المختلفـــة لإرواء غرائزه المنطلقة دون ضابط .. وكثيراً ما ينتهي ذلك بالفرد الى اقتراف الجرائم الاجتماعية ، ثم الانتحار هرباً من الحياة التي حولهـا بانحرافه الى جحيم لا يطاق .

ولعل من غرائب الاتفاق أن نكتب هذه الكلمات ، ثم نقرأ في جريدة (المجتمع) الاسلامية خبر قسيس انكليزي ، رأى انصراف الشباب عن كنيسته الى مَراقص الخنافس ، فلم يجد وسيلة لاجتذابهم أفضل من أن يتخنفَس ! وهكذا أرسل جُمته كالنساء ، وأخذ يعزف لهم ويرقص على طريقة أولئك المخنثين ، الذين يطلقون على أنفسهم في انكلترة اسم (الخنافس) !..

وقبل ذلك كان مما حدثني المرحوم الدكتور مصطفى السباعي عن مشاهداته في انكلترة ، ما رآه من إلحاق المراقص ومشارب الخمر بالكنائس ، ولما سأل الرئيس الأعلى للكنائس الانجليزية عن ذلك أجابه بقوله : لقد أعرض الجيل الجديد عن المسيح ، فأردنا أن نقنعه بأن الدين لا يمنعه من الاستمتاع بملذاته ! وهكذا أقمنا له بجانب كل كنيسة مرقصاً وخمارة ، لنستبقي صلته بنا ولو ساعةً في الأسبوع !.

ولعل كثيرين من إخواني قد استمعوا قبل زمن غير بعيد الى ذلك الخبر الذي أذاعته وكالات الأنباء العالمية ، ومؤداه أن الرئيس جونسون قد ألف لجنة لدراسة الأسباب الدافعة لانتشار روح الجريمة في أوساط المراهقين الأميركيين الذين لا يتجاوزون الثامنة عشرة !.

وحتى لا نبعدَ عن موضوع التربية والتعليم نذكر أن

(التربية الجنسية) جزء لا يتجزأ من مناهج التعليم في إسوج أرقى دول الغرب ، والمقصود بالتربيـــة الجنسيةِ تعريفُ الطالب والطالبةِ في سن مبكرةٍ جداً بأحوال الاتصـال الجنسي ، وكيف تتم العمليةُ الشهويةُ بين الرجل والمرأة ، وأصلحِ الوسائل لمنع الحمل ...

وقد كان من نتائج هذه الطريقـة الشيطانية اندفاعُ الطلاب والطالبات إلى ارتكاب هذه المفاسق دون أي حياء أو حذر ، حتى إن الطالبة السويديةَ لتدخل الفصلَ وهي منتفخة البطن من ثمرة الفجور ، وفي فمهـــا العلكة ، وعلى وجهها ابتسامةُ السرور ، كأنهـا لم تأت من الأعمـال إلا ما يستوجب الفخر !. وهكذا شاع الانحلال في إسوج حتى بلغ عدد الأبناء الذين لا آباء لهم في تلك البـلاد قرابـة ١٨٥ ألفاً حتى عام ١٩٤٥ فيما أذكر . هذا على الرغم من أن قوانين السويدِ تبيح للأطباء جريمة الإجهاض ، دون أن ترتب على ذلك أية مسئولية !.

وقـد ذكر سيد قطب – أجزل الله مثوبته ، وثبتـه في وجه الظالمين –[1] ان نسبة الطالبات اللواتي فقدن بكارتهن في ثانويات اميركا الشمالية قد بلغت ٤٨ ٪ بموجب احصاء المؤسسات الاجتماعية هناك ! .

ولا حاجة إلى التذكير بأن هذه القذارة بأجمعها لا تشكل

---

١ – كتب هذا قُبيل استشهاده .

إلا بعض نتائج النظرة الغربية إلى الانسان . تلك التي لا تخرج به عن مستوى الحيوانية إلا لتقول بأنه حيوان مدني !!..

وليت الفلاسفة الغربيين اكتفوا بهذا المسْخ البشع لقيمة الانسان ، ثم تركوا له أن يتدبر أمره على ضوء الفطرة بعيداً عن إغراآتهم الخبيثة .. ولكنهم أبوا إلا أن يسوقوا إليه حماقاتهم تلك باسم العلم ، فإذا هم يصوغون له هذه السموم نظرياتٍ فلسفيةً ، تارة باسم (النشوء والارتقاء) وطوراً باسم (التحليل النفسي) وحيناً باسم (الوجودية) .. إلى العديد من النظريات الأخرى .. التي تعاونت على تثبيت حيوانية الانسان ، وأوقعت في خَلَدِ المخلوق الغربي ان غاية الحرية البشرية هي أن يحقق ذاته على طريقة الفصائل الأخرى من إخوته في الحيوانية !!..

والمضحك المبكي أن هذه النظرياتِ جميعَها قد أخذت طريقها الى بلاد العرب والاسلام بقوة خارقة ، حتى أُقيمت لها الأندية ، وأُصدِرتْ لترويجها الصحف ، وبرزت أشدّ ما تكون في السينما والأغاني الاذاعية ، التي استحالت في الآونة الأخيرة دعوةً صريحةً الى الفسوق باسم الترفيه البريء !.. وقد بدأت غزوَها لبلاد العرب بالنظرية الداروينية ، التي تنتهي الى القول بأن الانسان سلالة من القِردة . وكان الشاعر

العراقي الزهاوي أول الناعقين بهذا الهُراء ، إذ راح يلوكه في الكثير من قصائده واشتهر عنه مثل قوله في تحقير الانسان :

هو القرد وابنُ القرد والقرد جده
فلا خير في قرد تناسل من قرد !

ولما ناقشته في لغوه هذا بقصيدة وجهتها اليه تفجّر من من الغيظ ، ورد عليها بقصيدة يصف فيها معارضيه بقوله عنهم : (.. أولئك قوم عقلهم في بطونهم ..) !

أجل.. ذلك هو حصاد النظرةِ المادية لابن آدم في الغرب والشرق . وقد يقول قائل أن هذا لا يعدو أن يكون أحداثاً فردية ، لا تعطي الصورة الكاملة عن المجتمع الغربي عامة .. لِهذا نذكّر بالقانون الرياضي ، الذي يقرر أن المجتمع هو الجسمُ الذي يتألف من مجموع الأفراد ، وهذا يعني أن آثار المنهج الغربي في الأفراد هي التي تؤلف المحصول النهائيّ لمجموع تلك الانحرافات في الحياة العامة . انها أشبه بالنتيجة التي نحصل عليها من الجمع بين عدد من المجانين ، أو بين عدد من اللصوص ، فالمحصول هو تأليف عصابة تستعمل مجموعة مواهبها في تنظيم طرائق السطو والفتك والتدمير !.. وطبيعي أنها لن توجه هذا التنظيم ضدّ نفسها ، بل ضد الآخرين ، وإن كانت الخاتمةُ تدميراً عاماً لها وللآخرين ..

أليس هذا هو واقع المجتمع الغربي ، الذي تسيطر على اتجاهاته التربوية روحُ العلمانية المجردة عن التصور الروحي !. إنه مجتمع بلغ فيه التركيز الفكري حدّ التضخم ، ولكنه انتهى في الروح الى ضمور عجيب ، فكان من نتيجة هذا التباين أن انطلقت طاقاته في سباق محموم نحو المنافع العاجلة ، فهي لا تبالي سوى نفسها ، ولا تهتم بغير متاعها ، ولو على أشلاء البشرية جميعها ، وان اضطُرت في سبيل ذلك الى استعمال القذائف الذرية والهيدروجينية التي تقضي على الملايين ، ولا تفرق بين المذنب والبريء !

والفرق بعد هذا واضح بين نتائج هذا المنهج الغربي ، المنطلق من نطاق الأهواء والانحرافات ، ونتائج المنهج الاسلامي المنبثق من ينابيع الوحي الإلهي ، الذي حدد للانسان وظيفته وهدفه وواجباته نحو نفسه وغيره ... ثم أطلقه ضمن هذه السبيل ، يدعو ويعمل على بصيرة ..

إن نقطة الانطلاق في هذا المنهج كما أسلفنا هي الإيمان بالله خالقاً وحاكماً ومعبوداً ومالكاً لكل شيء ، ثم العمل لإقامة بنيانِ العدالةِ الإلهية في الأرض ، كما حددها رب العالمين ، لمصلحة عباده أجمعين ، ومن ثم إعداد الفرد المسلم نفسه لأداء الحساب عن كل حركة وسكنة أتاها في عالم الأرض (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).

آراء في التعليم :

والآن نسأل : ما التعليم ؟.. أهو تلقيننا التلميـــذ مواد الدراسة بطريقة سلبية ، كما نلقن بعض الطيور كلمـــات معينة ، فلا نزال نكررها عليها حتى تتقن مخارجها كالإنسان السوي ؟!.

نستطيع أن نسمي هـــذا تعويداً أو استغلالاً لغريزة التقليد ، حتى نجعل صاحبهـا – إنساناً أو حيواناً – يحسن المحاكاة لما نعملهُ ونقوله ، كما يحدث في الببغاوات إذ نمرنها على النطق ببعض الكلمـات ، أو كما يفعل مروضو الحيوانات ، عندما يدربون بعضها على قيادة الدراجة ، أو الاتيان ببعض الأعمال التي هي من خصائص الانسان .

أمّا التعليم فهو في مدلوله اللغوي الأصيل نقل الانسان من حالة الجهل إلى حالة العلم ، فكل شيء يتعلمــه الانسان يصير به عالماً بعد أن كان على جهل به . وإذن فالتعليم ليس تقليداً ولا محاكاة ، ولكنه تغيير نفسي ، ينتقل به الانسان من حال إلى حال ، وقد تمازجه المحاكاة إلى حد ، ريثما تتمكن ملكة العلم من صاحبـــه ، ولكنه سينتهي أخيراً إلى الاستقلال الفكري ، حيث يستعمل ما تعلم لاكتشاف ما لم يتعلم ، وهذا التطور الإرادي في العقل والتدبير لا يتوفر لغير الانسان من

سائر أصناف الحيوان ، التي اعتـــاد الانسان تسخيرها لمحاكاته .

وبهذا يمكن تحديد مهمة المعلم بأنهـــا تحريكٌ لمواهبِ الطالب ، وتنظيمٌ لطاقاته العقليـة ، لتمكينه من إدراك ما حوله ، وما في نفسه على وجه سليم .

وقد اختلف كبار المفكرين في هذا الشأن حتى كان منهم – كالفلاسفـــة الاشراقيين ومن تأثر بمذهبهم من مفكري الاسلام – من يقول بأن المعلومات كلهـا مركوزة بالأصل في طبيعة الانسان ، بمعنى أن الخالق جلّ وعلا أودعه معرفـة كل ما يصح له معرفته من هـذا الكون ، ولكنه نسيها منذ ملابسته للجســـد ، فإذا أُتيح له مدرّبٌ يكشف له بعض جوانب هذا المنسيّ تنبه له ، وجعل يتذكره من جديـد ! فالتعلم عند هؤلاء إنما هو تذكير الطالب بما نسيه من معلومات مركوزة في أساس فطرته ! ويستدلون على ذلك بما في طبيعة الانسان من استعداد يجعله متجاوباً مع كل جديد من الأفكار ، ولولا السبق بوجود تلك المعلومات في فطرته لاستحال تعليمه أي شيء !. ومن ذيول هذه النظرية القول بأن قوانين الطيران والجاذبية والمغنطيس وكل ما ينتج عنها من كشوف علمية هي من المعلومات المطوية في نفس الإنسان ، لا جديـــد فيها ولا قديم ، ولا فاضل ولا مفضول !.

ولكن هذا الرأي لا يعدو طرائف الخيال ، إذ لا دليل على صحته سوى ما يفترضه أصحابه من استدلالات لا تستند إلى الواقع . والرأي الصحيح هو ما ذهب إليه القائلون بأن فطرة الانسان كصفحة الشمع ، نطبع عليها ما شئنا من الصور ، أو كصفحة الورق البيضاء نكتب عليها ما شئنا من الحق أو الباطل ، والنافع أو الضار .. ولو كان الأمر على ما ذهب إليه الآخرون لاستحال على الانسان أن يتعلم الخطأ أو الباطل ، لأن المركوز في فطرته لا يكون حينئذ إلا الصحيح الموافق للواقع دون أي خلاف .. ومن فضل الله على العقل البشري أنه لم يدع هذا الأمر بغير إيضاح ، ففي القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة لعلكم تشكرون » فهو يقرر بحكمٍ قاطع أننا خرجنا إلى الدنيا مجردين من كل علم بسننها وكيفية استغلال منافعها ، وتأمين وجودنا فيها ، ولكنه زودنا بالوسائل التي تمكننا من المعرفة بكل ذلك ، وهي السمع الذي به نتلقى الأخبار على اختلاف أنواعها ، والبصرُ الذي به نلاحظ ما يُحيط بنا ، ثم الأفئدةُ التي وظيفتُها تنسيقُ هذه الأخبار وتلك الملاحظات ، لنستخلص منها الحقائقَ مصفاةً من شوائب الأباطيل .

وفي الحديث الصحيح (كل مولود ، يولد على الفطرة حتى

يُعربَ عنه لسانه ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).
والذي نفهمه من لفظ (الفطرة) ، هنا وفي القرآن العظيم ، انه قابلية الطبع الانساني لاستجابة الحق ، بمعنى أن الفطرة السليمة لا تتردد في قبول أي مبدأ أوحى به الله إلى أنبيائه ، لأنه نابع من المصدر نفسه الذي تكونت بأمره هذه الفطرة ، فلا يعقل أن يكون بينها وبينه أي خلاف . ولكنها مع ذلك قابلة للانحراف بعامل التربية الفاسدة ، التي تبتعد بها عن منافذ الفطرة السوية ، ولهذا أكد القرآن العظيم هذه الحقيقة في أكثر من موضع . من ذلك قوله تعالى : (ونفسٍ وما سواها .. فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسّاها) .. فهنا بيان حاسم أن خالق هذه النفس قد وهب لها قابلية الارتفاع والهبوط ، فهي صالحة للفجور الذي هو جِماع الرذائل ، كما أنها صالحة للتقوى التي هي جماع الفضائل .. ولكنها لن تأخذ طريقها إلى التقوى إلا بالجهد المتواصل ، الذي عبر عنه سبحانه بالتزكية ، أما فسادها فلا يكلف سوى الاهمالِ وقبولِ الأفكار الخاطئة ، وبذلك تأخذ طريقها إلى الهبوط المريع ..

وبهذا القرار الصريح في شأن النفسِ الانسانية يتأكد ما ذهبنا إليه من تحديد لمهمة المعلم ، ويتضح بصورة جلية أن التعليم الحق إنما هو تدريب الانسان على البحث والملاحظة ،

وتتبع ما حوله وما في نفسه من أسرار التكوين ، التي من شأنها أن تقوي صلته بالله ، وتوسع مجال إدراكه لمظاهر عظمته .

الأسوة الحسنة :

في الآيات الكريمة التي عرضناها من سورة لقمان أنموذج مجسم لنظرة الاسلام إلى عنصر التربية كجزء لا يتجزأ من عمل المعلم . لقد رأينا لقمان يعلم ابنه أصول الحقائق ، معللة بالحكمة التي لا يستطيع المنطق مجافاتها ، ومرتبطة بالمعاني الإلهية التي تبدو وكأنها الهدف الأول والأخير لهذه الحقائق ، ويعني ذلك أنه لا انفكاك في المنهج الرباني بين التعليم والتربية الروحية ، فكل درس في أية مادة ، يُعتبر موضوعاً صالحاً لإثارة التطلعات الوجدانية إلى عظمة الله ورعايته وحكمته ، ومن ثم يصبح كل درس دفعة جديدة نحو الآفاق العليا ، التي منها يطل المؤمن على أسرار الكون في مجالها النوراني ..

وبهذه الروح الربانية ربط سلف هذه الأمة بين أسلوب التعليم ومضمونه ، فكانت مادة العلم من النوع الذي يغذي الضمير ، ويحرك الأشواق ، وكان المعلم هو المرشد الذي أثقله الشعور بعظمة المسئولية أمام الله ، وتجاه التلميذ الذي وكل إليه .

فمن ناحية المادة كان أول شيء يتلقاه الطفل على شيخه

أن يبدأ عمله (بسم الله الرحمن الرحيم) ثم يتدرج قُدُماً في هذا الطريق ، متنقلاً من آية إلى أخرى ، ومن سورة إلى سورة ، وفي أثناء ذلك تنطبع نفسه بهذه المعاني الإلهية شيئاً فشيئاً ، حتى إذا أحسن القراءة ، أحسن في الوقت نفسه استنبات البذور الأولى للحسّ الإيماني الذي سيصله بأعمق الحقائق الكونية فيما بعد ..

أما دور المعلم أثناء ذلك ، فهو دور المرشد الصالح ، يكشف للتلميذ المعنى العلوي وهو متفاعل معه مأخوذ بإيحائه ، وبذلك يتلقى التلميذ درسه عن طريق التعبير القرآني من ناحية ، ومن خلال القدوة العملية من ناحية أخرى .. فتتلاقى التربية والتعليم في انسجام متناغم لا حد لتأثيره في نفس المتعلم ، فيتحقق بهذا الانسجام بعض معاني الأسوة التي رسمها الله للمؤمنين في شخصية المعلم الأعظم محمد صلوات الله عليه وسلامه ، إذ يقول : (**لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً**) .

والآن لننظر إلى واقع التربية والتعليم كما نعيشه في ظل المناهج المترجمة .. فإلى أي حدّ يتحقق هذا التلاقي بين العمل والأسوة هناك !.

أما مادة التعليم فقد انتقلت مبادئها من البسملة والحمدلة إلى

(بي .. با .. بو ..) ثم يستمر النغم على الطريقة نفسها حتى تنتهي إلى ركام من الأخلاط العجيبة، يمتزج فيها الحق بالباطل، والخير بالشر ، والنص الحكيم بالقصيدة الفاجرة !.. على طريقة الاذاعة إذ تعرض التلاوة القرآنية ،ثم تعقبها بالأغاني الشيطانية !!.

أما الأسوة فهي آخر ما نفكر به عند اختيار المدرس .. إن كل ما نطلبه من عناصر الشخصية في المعلم هو أن يحسن عرض هذه الأخلاط بشيء من التوسع ، دون أن نطالبه بأية كفاءة خلقية أو روحية .. ثم ندع له أن يكون كيفما شاء ، وأن يصبَّ في تلميذه التوجيه الذي يراه !.

وأراني مضطراً لتقديم بعض النماذج لإيضاح ما أنا بصدده !.

في مدينة ما من دولة عربية طالبت إحدى الطوائف الاسلامية بإدخال مادة التربية الاسلامية في دروس ثانويتها ، فاستجابت الوزارة بعد لأي ، وكلفت مدرساً من خريجي كلية الآداب تدريس هذه المادة ، فكان أول كلمة ألقاها عليهم في هذا الموضوع هي قوله بالحرف : « من العجائب أن أكلف تدريسَكم الدينَ وأنا لا أومن بوجود الله ! » .

وذات يوم حدثني زميل من مدرسي الآداب أن فتاة مسلمة اعترضته أثناء تحليله لآيات من كتاب الله تقول : (هذه أشياء انتهى زمنها ، فلمَ تضيعون بها وقتنا !.) واتفق أن كنت

مدعواً مساء ذلك اليوم عند زميل آخر من مدرسي الدين ، ففاتحته بما سمعت ، فإذا هو يقول لي : (إن هذه الفتاة بنت أختي ، وكانت حتى يوم قريب المصليَة الوحيدة بين أهلها .. ولما فوجئت والدتها بانقطاعها عن الصلاه سألتهـا عن السبب فقالت لها : لقد تبين لي أنني كنت أعبد ربّاً غير موجود!.) وكان عليّ أن أستوضح هذا الزميل عن سبب انحراف ابنـة أخته فأجاب : (إنه المدرس فلان .. الذي ما زال يبث سمومه أثناء دروسه حتى ترك مثل هـذا الأثر في أكثر من طـالبة) .

ولعل من الخير أن أصرح بأن هذا المدرس كان بين الذين أعيدوا إلى بلادهم في زمرة الحزبيين ، الذين أُخرجوا من هذه المملكة قبل زمن قصير !..

ومرةً دخلت أحـد الفصول في ثانويةٍ سوريةٍ ، فإذا على السبورة بالخط العريض (ما الدليـل على وجود الله !؟.) فأبديت للطلاب أسفي أن يكون بينهم من يحتاج إلى جواب على هذا السؤال ، ولكنّ واحـداً منهم أجاب عنهم قائلا : (إنّا لا نريـد الجواب لأنفسنا بل لمدرس الرياضيـات الذي كان قبلك ، فأمضى حصته كلها في محـاولة التوكيد أن الله خرافة ، وأن الدين أفيون الكسَالى !.)

وذات يوم جمعني تدقيق الامتحانات بأحـد المدرسين ،

وأثناء العمــل ذكر بعض آراء داروين ، فقرأت بعض كلام الله في موضوع النشأة الأولى، فإذا هذا المدرس يسأل متعجباً: وما علاقة القرآن في مثل هــذا العلم ؟. ولما أوضحت له ما يجهل تساءل في دهشة أيضــاً : (أفتصدق كل ما جاء في القرآن ؟!.)

وفي أكبر ثانوية من ذلك البلد نفسه وقف مدرس في فصل الشهادة يقول : (إن صلاح الدين الأيوبي نكرة لم يعرفــه التاريخ حتى جاء الجنرال الفرنسي غورو فركل قبره بقدمه !.) ورُفعتْ شكوى ضد هذا المدرس .. ولكنها انتهت إلى سلة المهملات ، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى تسلم إحدى الوزارات !.

وأعرف رجــلاً يَحتلُ منصباً مرموقاً في أسرة التعليم من إحدى الدول الاسلاميــة ، وهو مواظب على الصلاة ، وقام بأداء فريضـــة الحج .. دعا المدرسين ذات يوم إلى اجتماع توجيهي . وشاء أن يتحدث عن مضار التعصب الطـــائفي وفضائل التسامح فكان ممــا قاله : لقــد كنت وزوجي في سياحة ببلاد اليونان ، فرأيت الناس ينظرون في دهشة إلى مصحف معلق في عنقهـــا ، فأردت أن أعالج دهشتهم ، فأخذت أفهمهم بالاشارة أن هـــذا المصحف رمز الاسلام ، ولكننا لسنا متعصبين ، بدليل أننـــا مستعدون لتطويق عنقينا بالصليب !..

هذه نماذج لا يسرني الإكثار منها ، لذلك أقتصر على ما قدمت ، ولو شئت لملأت منها الصفحات . وإذا دلت ، فعلى أننا أمام خلل خطير في جهاز التربية والتعليم جميعاً ، ولو كان الخلل مقصوراً على مادة التعليم وحدها ، لأمكن تداركه بعنصر التربية ، لأن المتفق عليه لدى الخبراء أن المنهج الفاسد ينتفي فساده إذا تولته يد المربي الصالح ، فإذا فسد المربي لم ينفع أي صلاح في أي منهاج تعليمي !.. ومن هنا ندرك أي خطر يهدد أجيالنا الحاضرة والآتية إذا استمر المرض دون علاج .. وبقليل من إنعام الفكر نعلم ان كل ما نعانيه من انحراف الجيل الاسلامي في جميع ديار الاسلام إنما مرده في الواقع البعيد إلى هذا الخلل ، الذي لم نر حتى اليوم من تنبه إليه من المشرفين على أعمال التربية والتعليم في جميع الحكومات الاسلامية .. ولا عجَب . فنحن بإغفالنا هذا الخطر قد تركنا أبناء المسلمين نهبة لمختلف الأوبئة ، مجردين من كل حصانة تقيهم شر هذه الانحرافات ! فأي غرابة إذا خسرناهم في النهاية ، فاستحالت طاقاتهم ، التي كان عليها أن تسهم في حماية إسلامنا ونشره ، إلى خطر مدمر ينصب علينا لمصلحة أعدائنا وأعداء ديننا !..

من أين نبدأ :

وعندما يبلغ الخطر هذا المدى لا يبقى ثمة مجال للتردد في

شأنــه .. ويصبح واجب المفكرين والمسئولين الأول هو التعاون لإقامة السدود في وجهه، قبل أن يجرف البقية الباقية من أمل النجاة . لذلك نتساءل عما يجب عمله ، ومن أين يجب أن نبدأ !.

وفي اعتقادي أن الأمر ليس من الإشكال بحيث نضيع وقتنا في الجدل بشأنه ، إن العــلاج الطبيعي للمريض هو مساعدته على متاعبه حتى يستعيد قدرته على العمل ، وهــذا يعني أن نعيد القضية إلى وضعها الصحيح ، والوضع الصحيح هنا يتناول عنصري التربية والتعليم كلا على حــدة ، ففي موضوع التعليم لا بد من إعادة النظر في المناهج ، وتنقيتها من التناقض والاضطراب ، ثم إقامتهــا على أساس من العقيــدة الصحيحة ، بمعنى أن كل مــادة في منهج الدراســة ينبغي أن تتعاون مع سواهــا على تكوين الفرد الصــالح للنهوض براية الاسلام .. ولن يتم لنا هــذا حتى نتحرر تمامــاً من كل اتجاه آخر ، سواء جاء هذا الاتجاه من الغرب أو الشرق ، ويومئذ لن نأخذ تاريخنا عن أعــداء الاســلام ، ولن نقيم فلسفته على أساس من التعليل المادي ، الذي يجعل الفتح الاسلامي عمليــة غزو اقتصادي، وإلهاء للقوى الداخلية عن التنازع السياسي !. ويومئذ لن تكون مؤلفاتنا في الأدب المدرسي سموماً ملفوفة

بالطـلاء الفني ، تجمع بين آيات محكمات من الكتـاب المبين ، إلى جانب أشتات مختلفات من نزوات المستهترين !.

وسيظل هذا كله في نطاق الأحـلام ، إذا لم يتوفر لهـذه النظم المثالية المربي الذي ينسجم معهـا .. واختيار المعلم على هذا الأساس هو رأس واجباتنا تجـاه الأجيال ، التي نريـد إنشاءهـا وفق الاتجـاه السّليم . وحين نفعل ذلك لا نعـدو المألوف في الأمم التي يهمها أمر الحِفاظ على نظامها الاجتماعي، فهي لا تأتمن على التعليم إلا المؤمنين بنظامها والمخلصين له .

ولا بد هنا من الإشارة إلى الفرق بين التعليم كمادة ، وبين الأسلوب كوسيـلة ، فمـادة التعليم هي المضمون الذي يؤلف وحدات المِنهاج ، وتؤلف في الوقت نفسه أسـاسَ التربيـة العقلية والروحية ، لذلك يجب التحفظ في اختيارها على ضوء المُثل الاسلاميـة ، التي تحـدد مكانـنـا ورسالتنا في المجتمع البشري . ويومئذ لن نسمح مثلاً لأنفسنا باتخاذ الرقصِ مادةً أساسية في مناهج التربية الفنية للبنات، كما هو الشأن في بعض الدول الاسلامية، ولا حجة للآخذين بذلك إلا مجرد التقليد ، وزعم التجديد !.

أما أساليب التعليم فتابعة للخبرات البشرية المتجـددة في كل يوم ، وقـد سبقنا الكثيرون في هـذا المضمار فلنستفدْ من

تجاربهم إلى أبعد مدى ، ما دامت لا تتعارض مع قِيَمِنا الروحية في شيء .

مقارنة عجلى :

ولعل من متطلبات البحث أن ننهيه بنظرة سريعة إلى الفروق القائمة بين المنهج الاسلامي والمنهج المادي ، في موضوع التلازم والتجافي بين عنصري التعليم والتربية ، وحصيلةِ كل من المنهجين في النفس الانسانية .

لقد اتضح مما أسلفنا أن فصل العلم عن المعنى الرباني في المنهج (العلماني) قد جعل مهمة التعليم محصورة في إيقاظ الذكاء ، وتدريب العقل على البحث في قوانين المادة ، مع إهمال كل شيء عدا ذلك . فكان من نتائج هذه الطريقة أن تضخم العقل على حساب الروح ، فالعقل الغربي قد استطاع في ظل العلمانية أن يدرك من أسرار المادة ما لم يصل إليه قبلها .. ولكنه بإغفاله الأثر الإلهي في هذه القوانين حرم نفسه ثمرة العلم الصحيح ، التي هي الخير العام له وللبشرية جميعاً ، فأصبحت غاية العلم هي السباق المحموم إلى توفير المتع الزائلة ، وإلى اختراع وسائل التدمير ، التي تهدد الكرة الأرضية كلها !. وهكذا كان التضخم العقلي في ظل الطريقة المادية سبباً في إغراق العالم في بُحران من الرعب والقلق لا نهاية له !.

ثم إن عنصر التربية في التعليم الغربي محدود الأثر في نطاق التنظيم المـادي وحـده ، فهو يربي في الانسان حرية الفكر وحرية العمـل ، ويدربـه على احترام حرية الآخرين من المواطنين فقط . ولكن هـذه الحرية تتجاوزُ المعقول ، حتى تصبح حرية بَهَمية منفلتة من كل زمام !. كذلك تظل فوائد هذا التنظيم الاجتماعي وقفاً على المصلحة القومية وحْدَها ، إذ ينسى هؤلاء الغربيون كلَّ معاني العدالة والتهذيب، عند معاملة الشعوب الضعيفة خارجَ حدود بلادهم . فهي إذن تربية نفعية ليس فيها نصيب للمعاني الانسانية .

ولقد ضيّقوا على أنفسهم مجالَ الحيـاة ، عندما حصروا غاية الوجود في هذه الدنيا وحدها ، فاعتبروا الهدف الأعلى للعلم هو مغالبة الطبيعة ، لتوفير المتعة والفخر القومي ، وهذا ما دفعهم إلى استباحـة حقوق الضعفاء ، والاستهانـةِ بكل معاني العدالة والانسانية في معاملتهم للآخرين .

يقابل ذلك في المخطط الاسلامي كونـُه قائمـاً على أساسٍ من العقيدة الإلهية في حياة أخرى خالدة ، لا يعتري الأحياءَ فيها موت ولا زوال .. فالحياة بنظر هذا المخطّـط أرحب من أن تحصرها حدود الدنيا ، والمسلم في ظل هذه العقيدة يعمل في هذه الحياة ليتزود للحيـاة الثانيـة ، ولذلك فمن مصلحته أن يستكثر من الخير ، وأن يشمـل بالخير كل شيء حوله . وهكذا نجـد النِظرة الانسانيـة أساسَ الفكر الاسلامي .

يضاف إلى ذلك أن الغربي ينظر إلى الطّبيعةِ كعدو قُضِيَ عليه أن يستنفد حياته في صراعه ، بينما الطّبيعة في نظر المسلم صديق مسخَّر لخدمةِ الانسان .. فهو مدعو إلى استصفاء كل ما يمكنه من منافع الأرض والسماء ، وكفى بهذا دافعاً إلى النشاط العقلي الذي لا يعرف الركود ..

ومن هنا نستطيع التوكيد على أن أبرز جوانب النهج الاسلامي في التعليم والتربية قيامُه على المبادىء التالية :

١ – إنه منهج كامل يجمع بين التعليم والتربية ولا يُقر أيَّ فصل بينهما .

٢ – إن من عناصر كماله عنايتَه بكل جانبٍ من الانسان، فهو لا يُعنى بالروح دون الجسد ، ولا يهتم بالعقل دونهما .

٣ – إن غايته العليا إعدادُ الانسان الرباني ، الذي يضع كل وجوده في سبيل الله ، ومن أمثال هذا الانسان يؤلّف المجتمع السعيد ، المتعاون على البر والتقوى ، وتحقيق العدالة المطلقة .

* * *

واخيرا

من أجل ذلك كله ، ومن أجل أنفسنا وأبنائنا وأوطاننا ومُثلنا العليا ، ندعو كل مؤمن بهذا المنهج الإلهي إلى التعاون مع العاملين بجميع الوسائل المشروعة ، لتحرير أوطان المسلمين من كل منهج مخالف له ، ولإعادة سلطانه على جميع

مؤسساتها التربوية ، لإنشاء الجيل الأفضل الذي تترقبه الإنسانية ليأخذ بيدها إلى ساحة النور .

ومَن أحق بتحقيق هذه الأماني الكبيرة من هذه المملكة ، التي يزهو علمها بشعار الاسلام ، وينهض عاهلها بعبء الدعوة إلى الاسلام ، وفيها الحَرَمان اللذان إليهما تهفو قلوب مئات الملايين من أبناء الاسلام ، وفيهما إلى ذلك (رابطة العالم الاسلامي) و(الجامعة الاسلامية) !.

وفي الكلام المأثور : (لن يَصلحَ آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..) وقد انطلقت بالأمس شعلة الاصلاح من هذين الحرمين ، ومنهما يجب أن تنطلق اليوم ، لتبدد ما أحاط بالبشرية وبالمسلمين من ظلماء ليس لها من جلاء إلا بضياء السماء .

والله هو المسئول أن يوفقنا رُعاةً ورعيةً لإعلاء كلمته ، ويستعمل جوارحنا في طاعته . إنه أكرم المسئولين . والحمد لله رب العالمين .

●

النصرانيَّة
أُسُسُهَا وَوَاقعهَا

عندما اقتضت حكمة الله جل وعلا أن يُهبط أبوينا إلى هذه الأرض زودهما بالبشرى التي تضمنت وعده تعالى باستمرار رعايته لهذا الجنس ، وإمداده إياه بالتخطيط الرشيد الذي يضمن هدايته في مجاهل الحياة وانتصاره على عدوه الذي أخرج أبويه من الجنة ، وآلى ليفسدن عليه فطرته ، وليقعدن له بكل سبيل ...

وهكذا تعهد سبحانه هذا الجنس بالمصطَفينَ الأخيار ، فلم يدع منهم أمة إلا بعث فيها نذيراً ، وكلما ادْلَهمّ طريقهم ، وأظلمت عليهم المسالك، تداركهم برحمته ، فأرسل اليهم منقذاً يأخذ بأيديهم في طريق النجاة ، فينفي عن دين الله ما يكون قد اعتراه من انتحال المبطلين ، وتحريف الغالين .. حتى ختم رسالاته الهادية بسيد وَلَد آدم محمد بن عبد الله ﷺ ...

وقد وفّى هؤلاء المصطَفونَ أمانة الله ، فكان كل نبي مصدّقاً لمن تقدمه أو عاصره منهم ، وممهداً للمرسَل بعده ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بمخالفة رسله .

وعلى هذا الطريق الأقوم جاءت رسالة نبي الله عيسى بن مريم ، مصلحة ما طرأ على دين أخيه موسى من الزيغ ، ومذكرة بخاتم النبيين صلوات الله عليهم وسلامه ، وممهدة السبيل للرسالة الخالدة التي سترد الجنس البشري إلى ظلال الوحدة ، التي طال ببعده عنها عهدُه ، إذ كان كل نبي يبعث إلى قومه إلا محمداً ﷺ الذي شاء الله أن يجعله رحمتَه المهداة إلى عباده أجمعين ..

جو الارهاب

وكانت بعثة عيسى (ع) على مقربة من بيت المقدس ، حيث ينيخ الحكم الروماني الغاشم بكلكله على صدور الناس ، فيتخذ من مال الله دولا ، ومن عباده خولا .. وكان سكان تلك الأرض أيامئذ خليطاً من الوثنيين وهم كثرة الناس ، وعقيدتهم هي عقيدة الدولة ، ومن اليهود الذين كُسِرت شوكتهم وأذل البغيُ رقابَهم ، فلا يهمهم في الغالب إلا منافعهم العابرة ، وقد نسي معظم أحبارهم مهمةَ الدعوة إلى الخير والحق ، فأقبلوا على الدنيا يتزلفون إلى طغاة الحاكمين ، ليأكلوا الدنيا بالدين ، إلا من رحم الله ، وقليل ما هم .

وينهض نبي الله عيسى (ع) بأعباء الدعوة التي بُعث لها، بهمة النبي المختار ، لتوعية بني اسرائيل ورد خرافهم الضالة إلى حظيرة النور ، فكان لا بد لدعوته الهادية النقية من أن تصطدم بمصالح أولئك المنحرفين من الأحبار ، كشأن كل نبي في كل أمة ...

وقد لقي المؤمنون بتلك الدعوة الكريمة ما يلقاه في العادة أتباع الأنبياء المخلصون من العَنَت والعناء المُبين ، إذ تعاون على نبي الله ومن معه الظَّلَمةُ من حماة الوثنية ، والزائغون من قومه أنفسهم ، فلاحقوهم بالأذى ، وطاردوهم بالوشايات ، وصُبت عليهم ألوان التعذيب ، حتى اضطروا إلى التخفي بدينهم فراراً من ذلك البلاء .. إذ قرر المتآمرون استئصال دعوة التوحيد من جذورها . وبلغت الأحقاد بالكَتَبة والفِريسيين ـ وهم أحبار يهود ـ حد التصميم على الإيقاع بعيسى (ع) نفسه ، فحرضوا عليه الوالي الروماني ، زاعمين أنه يدبر للثورة على النظام القائم ، ويعمل لتجميع العنصر الاسرائيلي ليكون ملكاً عليهم ، وليقوض بهم صرح الحكم الروماني . وبذلك أثاروا الطاغية للقبض على المسيح والقضاء عليه ، ليخلو لهم الجو ، ويأمنوا على مصالحهم التي تهددها دعوته .

وهنا تَدّعي الأناجيل المعتَمدة عند النصارى أن يهوذا

الاسخريوطي» ، وكان أحد حواريي المسيح ، قد تواطأ مع سعاة الفتنة على معلمه فدل عليه شرطة الوالي ، فألقوا القبض عليه وساقوه إلى محاكمة صورية انتهت بقتله على الصليب بين لصين كما - يزعمون - .

والكلام عن قصة الصلب هذه له موضعه من المحاضرة ، فلن نتعرض له الآن ، وإنما نوجه الأذهان إلى ذلك الجو المشحون بالإرهاب الذي عاناه أتباع المسيح ، وبخاصة الرجال الذين تجردوا للدعوة والتعليم ، فقد واجه هؤلاء ضروب النكال فسُجن بعضهم وشُرد آخرون ، وقُدم عدد منهم للحيوانات المفترسة ... وقد دعا ذلك إلى مضاعفة الحذر عند الكلام عن الدعوة ، ومبالغة الدعاة في التستر بها، وهذا بدوره أدى إلى أمر خطير، هو أنه فتح الباب لأصناف الناس ينتحلون المسيحية دون تضلع كاف بتعاليمها ، وأتاح الفرصة لبعض الدساسين يتسللون إلى صفوفهم ، فراحوا يتظاهرون بالإيمان ، ويتحدثون عن دين المسيح بالأسلوب الذي يحقق أغراضهم الرامية إلى تشويهها وصرف الناس عن حقيقتها . وهكذا انفصل جمهور المسيحيين عن منابع الدعوة الصحيحة، وأصبح مع تتابع الأيام كركب سفينة دمرتها الأمواج ، فراح كل منهم يتشبث بما يتوهمه وسيلة للنجاة .. ولا غرابة

فذلك هو الشأن في كل دعـوة تعيش في سراديب السرية ، إذ تغلفها الأوهام، ويتسع فيها مجال العبث لأصحاب الأهواء، كي يدسوا في صدور العامة ما توحي به شياطينهم ، فيختلط الحق بالباطل ، والمعلوم بالمجهول ، حتى يقيض الله للحقيقـة منقذاً ينفي عنها ما علق بها من الأسواء .

بولسية لا مسيحية

وقد اتفق أولو العلم والتاريخ مسلمين ومسيحيين على أن الذي خَرَج بالملة المسيحية الصحيحة عن مَهيَعِها المستقيم إنما هو بولس ، الذي يميزه المسيحيون اليوم ، بل منذ بدأ يفرض سلطانه عليهم ، باسم بولس الرسول ..

ولبولس هذا قصة طريفة ، تبدأ باسمه ، فهو لم يُعرف باسم بولس قبل تسلله إلى حظيرة المسيحية . أما اسمه الأول فهو شاول، وأما جنسيته فهي ضائعة بين الرومانية واليهودية، ونعرف ذلك من مذكراته هو ، حيث يعطي نفسه الهُوِيتين، فتارة يزعم أنـه من سبط بنيامين ، وأخرى يدعي أنـــه روماني قح [1] والمهم في أمره أنه كان موظفاً في مصلحـة الاستخبارات الرومانية ـ كما يظهر من تصرفاته التي لا تتوفر

١ – أنظر (محاضرات ...) ص ٧١ – ٧٦ ، و(أعمال الرسل) ٨ و ٩ و ٢٢ .

إلا لذوي النفوذ الجهنمي ـ وقد اشتهر بالغلظة على أتباع عيسى (ع) إذ كان يطاردهم في وحشية ، فيعتقلهم ويصب عليهم ألوان العذاب ، كما يذكر ذلك عن نفسه في كتاب « أعمال الرسل » ، وكان هدفه من ذلك كهدف أي طاغية يريد القضاء على حرية الضمير بقوة البطش والإرهاب ، ولكنه سرعان ما شعر أن غلظته لم تحقق رغبته ، وكل ما أحدثته من ردود فعل هو أن المؤمنين أخذوا يبالغون في التخفي ، فكان لا مندوحة عن تغيير خطته ، فلجأ إلى حيلة غريبة سرعان ما حققت له أكثر مما يريد . وذلك انه سافر في مهمة تفتيشية إلى دمشق ليأتي بأتباع المسيح مقيدين إلى أورشليم ، ولكنه ـ كما يقول ـ أبرق حوله بغتة نور من السماء ... وتراءى له المسيح ... وبذلك انقلب فجأة من أشد أعدائه إلى أن يصبح رسولاً له يعظ ويبشر ويكتب الرسائل [١] دون أن يسبق له أي دراسة للدعوة المسيحيه !..

وهكذا استولى على ثقة طيبي القلوب من المسيحيين فآمنوا بكرامته ، وصدقوا بولايته ، كفعل السذّج من الأعراب عندما استجابوا لدسائس زميله ابن السوداء عبدالله بن سبأ .. ومن ثم عرف كيف يستغل هذه الثقة العمياء إلى أقصى

---

١ – أنظر رسالته إلى أهل غلاطية ص ٣٠٥ .

الحدود ، فيتخذُ منها وسيلةً لتغيير ملة المسيح بشكل نهائي .
وكان السذّج من رجال الدين الذين خُدعوا به قد أعلنوا معه إلغاء سائر محرمات التوراة إلا ما ذبح للاصنام والمخنوق والدم والزنى ، وذلك تيسيراً على الوثنيين الذين استثقلوا قيود الشريعة الموسوية .. حتى الختان الذي تعتبره التوراة علامة مميزة لأتباعها ، والتي طبّقها عيسى نفسُه بختانه ، قد ألغاها تطييباً لقلوب الوثنيين . واستدر عطف حكام هؤلاء ، ففرض على المؤمنين بأفكاره أن يكونوا أتم الناس انقياداً لهم ، إذ قال في رسالته إلى رومية (لتخضعْ كل نفس للسلاطين ، لأنه ليس سلطان إلا من الله ، ومن يقاوم السلاطين يقاوم ترتيب الله ..) وبذلك وضع بولس أول لغم في أساس الدين الإلهي ، الذي لا يمكن أن يمالىء الظلَمة في جورهم وطغيانهم ، ففتح الطريق أمام الملاحدة ، الذين اعتبروا الدين نوعاً من المخدرات الخاصة بإلهاء المتدينين عن شئون الدنيا ، في حين أطلقوا أيدي البغاة من المتسلطين في رقاب الناس يسوقونهم إلى العذاب والقهر والعبودية لغير الله .. وهكذا صنع مع الأرقاء إذْ تزلف إلى سادتهم بإسباغ صفة الشرعية على كل ظلم يصبونه على هؤلاء المساكين .. وألحّ على هؤلاء بوجوب الرضى عن كل ما يلقونه من الذل والظلم ، على اعتبار أنه قدر إلهي لا مهرب منه !.

وبذلك كله وغيره استطاع بولس أن ينتحل ديناً يزعم أنه روح المسيحية الحق.. وبهذا السلوك المخطط تجنب إحراج الحكام والاصطدام بالأنظمة الجائرة ، واستولى على موافقة المتفلسفين من وثنيي الرومان واليونان ، الذين ما كان ليرضيهم أن يقتلعوا الناس من التقاليد الوثنية ، بعد أن خالطت وجودهم، وارتبطت بها موارثيهم ومصالحهم، فكانوا يتطلعون إلى حل يجعل الدين ضرباً من التعزية الروحية تذهلهم عما يعانونه من الشقاء الغامر ، دون أن تكلفهم تغيير واقعهم ، أو إصلاح عقائدهم .. ومن ذلك اليوم انقسم المسيحيون على أنفسهم ، فكان منهم الفاقهون لحقيقة الدين الذي بعث عيسى لتجديده ، فثبتوا على الحق ، وأعلنوا مقاومتهم لخطة بولس، وبين هؤلاء (برنابا) أحد الحواريين الأول ، الذي خدع به أولاً فلما اطلع على مساعيه هذه اندفع إلى تفنيدها ، وقد ضمن ذلك كتابه المعروف بإنجيل برنابا ، وهو كتاب قديم كان معروفاً في الأوساط المعنية بالمسيحية ، وظل متداولاً بينها حتى أواخر القرن الخامس الميلادي أي قبل البعثة النبوية بزمن طويل . وفي مقدمته يعلن برنابا أنه شرع بتأليفه لما رآه من شيوع الدعوات المكذوبة على المسيح ، وكثرة الدعاة إلى الباطل ، ويأسف لأن بولس قد بات أحد هؤلاء الذين يبشرون بغير الحقيقة التي ائتمنوا عليها ، ويكرر اتهامه هذا في ختام إنجيله كما أعلنه في بدئه .

ومما يؤسف أن هذا السفر التاريخي الهام قد حُرِّمَت قراءته على المسيحيين، واختفت نسخه القليلة، إلا واحدة شاء الله أن يُعثر عليها في فيينا، وأن تظل مجهولةً عند المسلمين والعرب حتى قيض لها رجل نصراني هو الدكتور خليل سعادة، فنقل ترجمتها إلى العربية، وهكذا ظهرت أول طبعة منها في هذه اللغة. وقد هال أمرُها متعصبةَ النصارى فراحوا يجمعون منها ما أمكن ليقل تداولها والاطلاع عليها، وذلك لما انطوت عليه من فضائحَ للذين شوّهوا ديانة المسيح، وبشرياتٍ صريحةٍ عظيمةٍ ببعثة سيد المرسلين ﷺ.. ولكن أبى الله إلا صيانة الحقيقة، فبقي إنجيل برنابا حتى هذه الساعة شاهدَ صدقٍ على هذه الحقائق والوقائع.

ثم جاء بعد برنابا رجال علم سلمت عقولهم من التعصب والخوف، فراحوا يعلنون إنكارهم لعمل بولس في إفساد المسيحية.. وقد جمع كولن ولسن ـ الفيلسوف الانجليزي المعاصر ـ طائفة من شهاداتهم في كتابه (سقوط الحضارة) الذي يعلن فيه ما يلي بالحرف: (إن الدين الذي اخترعه بولس وسماه المسيحية لم تكن له علاقة بتعاليم المؤسس) و(إن قول المسيح: كن سيد نفسك، قد تلاشى وحل محله مسيح آخر من اختراع بولس) و(إن المسيحية لم ترتكز على تعاليم

المسيح ، وإنما ارتكزت على عقيدة ميتافيزيكية ـ غيبية ـ اخترعها بولس). وينقل المؤلف هذا قول نيتشه ـ الفيلسوف الألماني الجبار ـ (لقـد كانت دعوة المسيح في جوهرها دعوة إلى النظام والقوة ، أما بولس فقد حولها إلى دين صار ملاذاً للخائفين والمذعورين)وينقل كذلك كلمة ويلز في كتابه المشهور (ملخص التاريخ) التي يقول فيهـــا : (ان المسيح لم يبشر بالمسيحية المعروفة اليوم ، وإنمـــا أحدثها بولس المتعلم بالاسكندرية ، ومنها أخذ تعاليمه الوثنية التي استحالت فيها آلهة قدماء المصريين « إيزيس وهورس وسيزابيس إلى الآب والابن وروح القدس »[1] .

من هذا كله يتضح لكل ذي بصيرة سليمــة أن المسيحية المعروفة اليوم ليست بديانة المسيح، وإنما هي من صنع بولس، وكان الأحرى لو أعطيت الأشياء أسماءها الصحيحة أن تسمى (البولسية) لا (المسيحية) .

التثليث والفداء

واشارة ويلز إلى الاسكندرية جديرة بالاهتمام ، فهو يحكم بأن بولس إنما أخذ منها تعاليمه الوثنية .. ولـكي نوضح مراده من ذلك ينبغي أن نحدد الأوضاع الدينية التي عليها كان يقوم

---

١ -- راجع سقوط الحضارة ص ١٧٦ و١٧٨ .

العالم المعروف أيام بعثة المسيح . فالوثنية الرومانية ، والمجوسية الهندية الفارسية تكتسح معظم ذلك العالم المعروف .. حتى اليهودية ذات المصدر الإلهي قد اقتحمها هذا الفساد ، فشوه رسالة النبيين . وقد أصبح للوثنية – سواء الهندية أو الإغريقية – فلسفتها الجدلية ، وأساطيرها الخرافية التي استحوذت على أذهان السواد الأعظم من الخلق ، وضربت عليها الأسداد ، فهي لا تبصر إلا من خلالها ، ولا تفقه للحياة معنى خارجاً عن حدود تصوراتها . وقد اتسع بذلك ميدان التنافس أمام المتفلسفين ، الذين يعتبرون التفكير البشري هو المعوَّلَ الوحيد للوصول إلى الحقيقة ، بعد أن انقطعت صلته بمصادر الوحي .

في هذا الجو المظلم نشأت فلسفة الاسكندرية التي أقامت نفسها حكماً بين المذاهب المختلفة ، وكان من أبرز شيوخها أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ م . وكان قد اطلع على مختلف الفلسفات والنحل الشرقية أثناء تجواله في فارس والهند .. ومن ثم خرج على الناس بنظريته التي لفقها من هنا وهناك ، وركز بنيانها على الأسس التالية :

١ – إنه تعالى واجب الوجود ومنشىء الكل .

٢ – أول شيء صدر عن أعماله تعالى هو العقل المنتج .

٣ ـ إن هذا العقل الفعال قد انبثق عنه الروح الذي منه صدرت الأرواح جميعاً .

وعن هـذا الثالوث (منشىء الكل ، والعقل المنتج ، والروح العليا) يصدر كل شيء .

وبقليل من التدقيق في المراجع التاريخية نستطيع أن نرد أصول هـذه النظرية الخرافية إلى مصادرها الوثنيه سواء في الشرق أو في الغرب ..

ففي نطاق التثليث نكاد نجده القـدر المشترك بين معظم الأمم الوثنية الضاربة في القدم . يقول صاحب كتاب (الآثار الهندية القديمة)[١] : (كان لدى أكثر الأمم البائـدة تعاليم دينية تقول باللاهوت الثلاثي) ويقول دوان في كتابه (خرافات التوراة والإنجيل) إذا رجعنا البصر نحو الهنـد نرى ان أشهر عباداتهم هو التثليث ويعبرون عنـه بالأقانيم الثلاثة (برهمة وفشنو وسيفا) ويؤمنون بأن هذه الثلاثة إنما تشكل ثلاث هيئات لشيء واحـد) ويقول فابر في كتابه (أصل الوثنية) : إن بوذيي الصين يعبـدون إلهاً مثلث الأقانيم ويسمونه « فو »[٢] ويقول دوان : (ان شيعة تاوو

(١ و ٢) أنظر (العقائد الوثنية ..) ص ٢٤ و ٢٧ .

في الصين يزعمون أن تاوو ، وهو العقل الأبدي ، انبثق منه واحد ومن هذا الواحد انبثق ثان ، ومن الثاني انبثق ثالث ، ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء ..) وكذلك الأمر عند المصريين إذ كان كهنة ممفيس يعلّمون المبتدئين بقولهم : (إن الأول خلق الثاني ، والثاني مع الأول خلقا الثالث ، وبذلك تم الثالوث المقدس)[1] . ويروي دوان هـذا أن توليسو ملك مصر سأل الكاهن تينشوكي عمن هو أعظم منه فأجابه : الله ، ثم الكلمة ومعها روح القدس ، الذين يؤلفون طبيعة واحدة وذاتاً واحدة عنها صدرت القوة الأبـدية ..)[2] والملاحظ أن عبارة الكـاهن المصري تكاد تكون هي التعبير المسيحي نفسه .

ومثل هذه المثلثات عرفت عند الفرس واليونان والرومان وبرابرة اسكندنافية وقدماء المكسيكيين وهنود كندة .. ونجد تفصيل ذلك في كتاب (العقائد الوثنية في الديانة النصرانيه) تأليف الكاتب المصري محمد طاهر التنير ، الذي قدمه إلى (صليبيي القرن العشرين المبشرين) ..

وعلى أساس التثليث هـذا يقوم الأصل الثاني للنصرانية البولسية ، وهو مبدأ الفداء ، وملخصه :

---

١ و ٢ – أنظر (العقائد الوثنية ..) ص ٢٨ .

أ ـ ان خطيئة آدم (ع) بأكله من الشجرة قد سرت مع خصائص الجنس في دماء نسله جميعاً .

ب ـ انه لا سبيل إلى التحرر من الخطيئة عن طريق التوبة والعمل الصالح .

ج ـ ان الوسيلة الوحيدة لخلاص الجنس الآدمي من ذلك الرجس إنما هي بتضحية الآب ابنه فداء للإنسانية .

وهكذا سلم الآب ابنه الحبيب إلى أعدائه ليصلبوه من أجل إنقاذهم وأبناء جنسهم !.

وبما أنه مكتوب في صحفهم المقدسة أن كل من علق على خشبة فهو ملعون ، فقد تحمل مسيحهم المسكين هذه اللعنة من أجلهم، بل صار هو نفسه لعنة ، كما يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية ! .

ولنتتبع الآن أصول هذه المقالة مقالة الفداء عند قدماء الوثنيين .. وأول ما يواجهنا من ذلك هو إجماع الوثنيين الأولين على تقديم الذبيحة البشرية استرضاء لآلهتهم ، يشترك في ذلك الرومان واليونان والمصريون ، والفينيقيون والهنود.. يقول دوان : « ويعتقد الهنود بأن كرشنا الذي هو الإله فشنو قدم نفسه ذبيحة ليخلص أهل الأرض من أوزار الخطيئة ..) وأنه مصور في كتب الهنود مثقوب اليدين

والرجلين ، ومعلق على صليب [1] وقد نقل الراهب جورجيوس صورة اندرا معبود النيبال مصلوباً كما يصورونه يوم عيدهم في شهر آب [2] . وفي ترانيم البوذيين الدينية التي يمجدون بها معبودهم بوذا يقولون : (عاينتَ الاضطهاد والامتهان والسجن والموت والقتل بصبر وحب عظيم لجلب السعادة للناس ..) ويدعونه الطبيب العظيم ، ومخلص العالم والمسيح المولود الوحيد ، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر آثام البشر [3] وروى المؤرخ موري في كتابه (الخرافات) : ان المصريين يعدون أوسيريس أعظم مثال لتقديم النفس ذبيحة لينال الناس النجاة [4] والسوريون يعتبرون معبودهم تموز الإله المولود من عذراء تألم من أجل الناس وفداهم بتقديم نفسه للصلب) [5] .

ونحن لو استرسلنا مع هذا العرض لضاقت الصفحات ، فحسبنا منها ما ذكرنا ، ولَئِنْ دل هذا فإنما يدل على أن قول النصارى بصلب المسيح فداءً للجنس البشري ، ليس إلا صدى لما جرى عليه عُبّاد الأوثان من أقدم الأزمان ، ولا شك أن مثل هذا الضرب من الخرافات ينطوي على جاذبية لقصار النظر وأهل الجهل ، الذين يستهويهم كل غريب من

(١و٢ و٣ و٤ و٥) (العقائد الوثنية..) ص ٤١ و٤٢ و٤٣–٤٩ .

القول ، ولا يملكون القدرة على البحث والنقد ، فيستسلمون للتقليد دون تردد . وقد شارك بعض الذين يُظن بهم العقل من النصارى في قبول هذه المزاعم على طريقة الاستسلام الاعمى ، لأن الرأي عندهم أن الدين ليس لزاماً أن يصطلح مع الحقائق العلمية ، وإنما هو لتعزية النفس ، وصرفها عن الواقع فقط [1] .. الأمر الذي دعا ماركس لرمي الدين بكونه أفيوناً للشعوب ، وهو قول صادق لولا ما أراده من التعميم ...

وهكذا يتضح لنا أكثر فأكثر معنى قوله تعالى: «وقالت اليهود عزيرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى المسيح ابنُ الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله انى يؤفكون ! ٩ ـ ٣٠ » .

فهو مجرد قول بالأفواه ، لأن الفطرة والعقل يرفضانه فلا ينسجم معهما ، وهو مجرد مضاهاة للكافرين السابقين الذين

---

١ ـ كتب الدكتور « آرثر روبرتس » إلى اللورد المسلم هدلي يقول : (إني وإياك وكل انسان جانون ، والله وحده هو المنزه ، فكيف يمكنك وأنت خاطىء جان أن تكون سعيداً مع الله المنزه ؟! ..) وهو يشير بذلك إلى إيمانه بالخطيئة الجدية .. التي بزعمهم شملت كل فرد من أبناء آدم برجسها ، فلا طهارة لهم منها إلا بالفداء !. أنظر مجلة (التضامن الاسلامي) عدد المحرم ١٣٩١ .

زعموا كل ما زعمه النصارى لمسيحهم ... تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ...

التقليد الأعمى مصدر كل ضلال

مما تقدم يتبين بجلاء ان الاتباع الضرير، والاستسلام دون تفكير، لمزاعم المضللين من السابقين واللاحقين، هما الدافع الرئيسي لاستمرار هذه الضلالات بين الناس، والإتباع الاستسلامي هو الذي مكّن للكهنة والدجالين من رقاب الشعوب، فعطلوا عقولهم، وألغوا مواهبهم، ورضوا بكل ما يمليه عليهم هؤلاء. وتلك هي العبادة التي وبخ الله أهلها في قوله الحكيم: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ...) وقد كان من آثار هذا الانقياد العمي أن عُزِل أهل الكتاب عن مصادر دينهم الأساسية، والتزموا بأوامر رجال الكهنوت وحدها، فالنصارى لا يكادون يقرؤون الإنجيل فضلاً عن أن تجد حُفّاظاً له، وقد اعترف بذلك كبار مبشريهم، وفيهم بيار دودج الذي يقول في كتابه (الاسلام في نظر الغرب): «نحن المسيحيين لا نقرأ اللاويين، ولا نصوصاً من رسائل بولس، وإنما نُعنى بالموعظة التي ألقاها المسيح على الجبل، وبعض النصوص الجميلة التي تتعلق بالحياة الحديثة ..)

واليهود كالنصارى، لا يكادون يعلمون عن ديانتهم إلا ما يقرره حاخاموهم، لأن هؤلاء أوقعوا في خلدهم ان الدين هو ما يقوله رجل الدين، لا ما تسجله كتب النبيين !. وقد بلغ

انقياد النصارى لأحبارهم أن الأتقياء منهم يستقبلون كل أمر لهم بالخضوع المطلق ، حتى ولو خرج على حقائق الطبيعة والتاريخ . وقد رأينا قبل سنوات قليلة قسيس رومة الأكبر يعلن على مسمع مئات الألوف من حجاج الفاتيكان أن العذراء قد ارتفعت الى السماء، وأن كل من يتردد في قبول هذا القرار الكنسي يحكم بالحرمان ، أي بالخروج من الرعاية الكنسية ، وشاهدنا مجمعهم المسكوني قبل سنتين يقرر براءة اليهود من دم المسيح ، فيخالف بذلك كل ما سبقه من قرارات المجامع، التي تعتبر الجنس اليهودي كله مشتركاً في تلك اللعنة . وقرأنا قبل زمن غير بعيد قرار المجلس الكنسي في بريطانيا باطلاق حرية اللواط ، وإنكاره على البوليس ملاحقة مرتكبيه[1].. وقد علم دارسو التاريخ كيف ان بعض البابوات كانوا يبيعون صكوك الغفران ويُقطعون الدافعين المنازلَ العليا في ملكوت السماء !.

محنة الموحدين

وهنا لا نجد بدأ من التساؤل : « هذه الضلالات التي قطعت أرحام البشر ، وطمست طريق العقل وملأت دروب الشعوب بالأشلاء والضحايا .. ألم تجد أثناء مسيرتها التاريخية

---

(١) قدم اليهودي (ولفندن) مشروعاً الى البرلمان الانجليزي بضرورة إباحة اللواط فأيده عدد من رجال الدين ومن طلبة الجامعات البريطانية... وساروا بتظاهرة الى مجلس العموم لاعلان هذا التأييد بتاريخ ٦٦/٢/٩ . أنظر (جذور البلاء) ص ١٧٩ و ١٨٠ .

أية مقاومة ؟! وهل استسلم لها كل هؤلاء الأتباع عن طيب خاطر ؟!.. »

والجواب على ذلك بارز في كل زمان ومكان .. ان المقاومة لم تقف قط ، والمعركة لم تزل مستعرة بين جنود الحق وكتائب الباطل حتى هذه الساعة .

لقد بُعث المسيح (ع) والعالم يخوض في ظلمات الأفكار الوثنية ، تلك التي لم يسلم من التأثر بها شعب ، على تفاوت في مقدار التأثر .. حتى الذين لم يستطيعوا الاقتناع بها نفضوا أيديهم من كل شيء ، وأيقنوا أن العقل البشري عاجز بطبيعته عن اكتشاف الحقيقة ، فانقطعوا عن البحث وقالوا عن كل شيء : لا ندري ، حتى سُمُّوا باللاأدرية . وآخرون أنكروا وجود الحقيقة البتة ، وزعموا ان البلاغة هي التي تحدث المجردات في الذهن ، فهي عندهم من تأليف اللسان البليغ ، ولا وجود لها خارج الكلام!.وقد عُرف هؤلاء بالسوفسطائيين واستمرت مزاعمهم هي السائدة لدى الاغريق ومن لحق بهم ، حتى جاء سقراط فدمّر عليهم تخرصاتهم بمنطقه ، ولكنه ظل يدور في فلك الوثنيات ، ولم يستطع التحرر من تصوراتها ، وبخاصة فيما يتعلق بصفات الله سبحانه وتعالى ، شأنه في ذلك شأن كل تفكير بشري انفصل عن أشعة الوحي ..

وهكذا كانت بعثة المسيح (ع) تصحيحاً للتصورات

البشرية عن الكون وخالقه عز وجل، وصدمة ً للعقل اليهودي الذي سقط كغيره في تلك المزالق ، فأراه الطريق الحق ، وأحيا ما اندثر من معـــالم الوحي ، الذي ائتمن عليه بنو إسرائيل فلم يطيقوا احتماله .. وقد أُتِيَتْ دعوة المسيح من قبل القوم الذين كانوا أولى الناس بنصرتها: أحبار بني اسرائيل الذين لم يطيقوا التخلي عن زعامة الغوغاء، ورأوا في انتصارها اندحاراً لمنافعهم الزائلة ، فواجهوا النبي (ع) بالإنكار ، ورموه وأُمه بالأعاضيه ، ثم استعدوا عليه السلطة الوثنية ، زاعمين انه يريد الثورة بها كما أسلفنا،فلم يسع أصحاب السلطان إلا التدخل . وأرادوا بنبي الله كيداً فجعلهم الأخسرين . وهكذا حال الله بينهم وبينه فرفعه إليه ، وسيق مكانه من وقع حكم القدر عليه ، فكان من المصلوبين ..

وتعثرت حركة الدعوة طويلاً بعد ذهاب مبعوثها ، ولقي الثابتون عليها ألوان البلاء ، وامتدت مرحلة الاختفـــاء الى أكثر من مئة سنة اختلطت أثناءها الحقائق بالأباطيل ، حتى كادت تضيع معـــالم دعوة المسيح في غمار الضلالات العامية والدسائس المتعمَّدة ، وهناك رأى المطاردون من الرومان أن يهادنوا أتباعهـــا ويجربوا استغلالهم ، بعد أن يئسوا من القضاء عليهم ، فأزالوا حاجز السيل، وتركوا للأفكار المختلفة أن تتدفق وتتصارع على مشهد منهم ، وكان من نتائج ذلك

أن ظهرت عشرات الأسفار عن حياة المسيح ، وبين معظمها تناقض يستحيل معه التوفيق ، مما دعا الكبار من المتكلمين في الدين للبحث في أمرها عن كثب ، فعقدت المجامع واحداً بعد آخر ، وكل مجمع يرى إسقاط بعض هذه الكتب ، حتى انتهى الأمر إلى الاكتفاء بأربعة منها هي أناجيل مرقص ولوقا ومتى ويوحنا ، المتداولة بين القوم حتى اليوم . والتي على الرغم من إقرارها جميعاً من قبل طوائفهم كلها ، لم تخلُ من تناقض أعلنه علماؤهم أنفسهم.. من ذلك ما أثبتته دائرة المعارف البريطانية عن انجيل يوحنا بقولها: (ان مزوراً سيىء النية من الاسكندرية وضعه لاظهار التعارض بين القديسين متى ويوحنا) .

وكانت قضية الساعة بالنسبة الى هاتيك المجامع هي تحديد الاعتقاد في شخص المسيح (ع) فهناك الموحدون الذين لا يرون في المسيح سوى إنسان أكرمه الله بالرسالة ، ليقوّم ما اعوج من سلوك بني اسرائيل ، يقابلهم من الجانب الآخر المتفلسفون الذين أشربوا تخاليط الفلسفة المصرية ، فراحوا يفسرون معتقدهم في المسيح على أساس التثليث الأفلوطيني نفسه ، بعد قليل من التحوير الاسمي ، إذ جعلوا الآب مكان منشيء الكل ، واصطلحوا على تعريف العقـــل المنتج بانه الكلمة ، وحددوا الكلمه بانها الابن ، ثم اعتبروا روح الكل هو روح القدس ، وبذلك تركزت عقيدتهم الأساسية على هذه الثلاثة :

الآب والابن وروح القدس ، ثم مزجوها جميعاً فاعتبروها إلهاً واحداً مؤلفاً من ثلاثة أقانيم ، تماماً كالذي رأيناه عند قدماء الوثنيين من أهل التثليث !...[1]

وكانت كثرة هؤلاء الكبار من أهل التوحيد الذين وصلتهم حقائق الرسالة المسيحية سليمة من التلاعب والتحريف الوثني.. وكان صوتهم هو الأعلى في كل هذه المجامع ، حتى كان مجمع نيقية المعقود سنة ٣٢٥م وقد عقد في ظل الامبراطور الروماني قسطنطين ، الذي ظل على وثنيته حتى قبيل موته ، ووقف وراء القلة المدافعة عن التثليث ، لأنه الأقرب الى تقاليده الموروثة التي تقوم على تعدد الآلهة ، وأنصاف الآلهة ، وتختلق لتلك الآلهة قصص المغامرات التي تصورها في أحقر المستويات الخلقية ...

وامتاز كل من الفريقين الموحِدين بقيادة آريوس ، والمثلثين بقيادة بطريرك الاسكندرية ، ودافع كل من الفريقين عن مذهبه ، وكاد يتلاشى صوت القلة الزائغة لولا تدخل الدولة ممثلةً بقسطنطين الذي أطلق يد الطائفة المؤلهة للمسيح في مملكته تفعل ما تشاء ، فتحرق كل كتاب خالف رأيها ، وتكفّر كل فكر مؤمن بغيرها ..

---

(١) فسر هذا الموضوع بدقة المستشرق ليون جوتيه في كتابه (المدخل الى الفلسفة الاسلامية) ...

وهكذا انفض المؤتمر ، وعاد كل من الفريقين إلى مركزه يدعو إلى نحلته ... ويسفه من خالفها . ولما رأى بطريرك الاسكندرية نفسه عاجزاً عن مواجهة خصمه بالحجة والبينة عمد الى استغلال سلطة الدولة الوثنية ، فأعلن تكفير أريوس وشيعته الكبيرة ... وبدأت المعركة تأخذ مجراها العنيف ، حتى اذا رأت الدولة الوثنية أن صوت الحق غير مستعد للسكوت أو التراجع تدخلت بالقوة الى جانب الرأي الاسكندري ، واعتبرت كل مخالف له خارجاً على سلطان الدولة . وتبع ذلك مجازر سالت معها دماء الموحدين حتى اضطرت بقيتهم الى التشتت تحت كل كوكب ، وانفسح المجال أمام الفريق الآخر يقول ما يشاء ، ويدّعي ما يشاء ، كما تفعل أي قوة غاصبة حين تستولي على أزمة الاعلام ، فلا تسمح لكلمة الحق بالوصول إلى آذان الناس .. ولكن هذه النهاية لا تعني أن انتصار أنصار التثليث كان حاسماً ، لأن صوت الموحدين لم ينقطع قط خلال هذه القرون التي أعقبت ذلك المجمع .. وقد رأينا بقية الصالحين من أهل الكتاب أيام البعثة المحمدية ، على صاحبها صلاة الله وسلامه ، مستقيمة على الطريق الحق ، تنذر وتبشر ، على ضعف وسائلها وكثرة المنحرفين من حولها... وحسبنا أن نشير من هؤلاء إلى القسس الذين لقيهم سلمان رضي الله عنه ، والذين كان خاتمهم أسقف

عمورية الذي دله عـــلى رسول الله ، وابن الهَيَّبانِ الحَبر الاسرائيلي الصالح الذي مات في هذه الأرض، التي قدمها لاعداد قومه لاستقبال خاتم الأنبياء ، وبحيرا الراهبِ الذي كان يرابط على حدود البادية يتنسَّم أخبار الرسول المنتظر، وورقة ابن نوفل الذي ما برح يتتبع إشارات الكتب المقدسة في شأن النبي الموعود حتى لقيه وبشره وقبّل يافوخه .

وها هم أولاء بقايا الموحِدين لا يزالون ينتشرون حتى الساعة في مختلف أنحاء اوربة ، على الرغم من كل مـــا أصابهم من النكال والتشريد ، وما تعرضوا له من المذابح.. وقد وجد بعضهم مستقراً في فرنسة حيث أخذوا ينشرون دعوتهم تحت اسم (كنيسة الموحدين) ، وفي اعتقادي ان ثورة لوثر وكالفن مؤسّسَي البروتستينية بوجه الكنيسة الرومانية ــ الكثلكة ــ ثم ما تلاها من انشقاقات باسم السبتيين وجماعة يَهْوَه ، ليست في حقيقتهـــا سوى تعبير عن تمرد الفطرة على ذلك الدين الذي اخترعه بولس ، وفرضه التقليد الضرير على مئات الملايين، غير ان اصحابها مع الأسف لم يعرفوا السبيل القوية الى الحقيقة التي يفتقدونها .. ، ولهذا يرون أنفسهم مجرورين بين الحين والحين إلى ألوان من المذابح الدينية تدفع إليها اختلافاتهم الطائفية ، ولوقتباطاتهم بمختلف الدوافع العَصَبية الـــتي لم تهتد بعد إلى الطريق الصحيح ، ولا أدلّ على ذلك من المعـارك القائمة حتى

هذه اللحظة بين الكاثوليك والبروتستنت في إيرلنده ، والتي لن تنتهي إلا بالقضاء على أحد الاتجاهين ، أو التلاقي السليم على اتجاه آخر يوفر للجميع وسائل الاخوة الصحيحة ... وهي الرباط الفطري الذي لا يصلح له ولا يصلحه إلا الدين الرباني الذي لم يعتره تبديل ولا تغيير، ولم يفسده تشويه ولا تحريف.

الاكتشافان الخطيران

لقد مضينا حتى الآن مع النصرانية خلال مراحلها التاريخية ، فأدركنا أُسُسَها المستمدة من أعماق الوثنيات القديمة ، حتى أفلوطينَ الاسكندري وبولسَ اليهودي، وأطللنا أخيراً على واقعها المؤسف حيث لا تزال كشأنها أيام الحكم الكَنَسي تطارد الأفكار الحرة ، وتثير المجازر الطائفية ، وتستبيح تضليل المسلمين ، لترد من تستطيع منهم إلى الكفر بعد الايمان ... ولا يخجل دعاتها المحدَثون من ترديد أساطير قدماء الوثنيين، الذين عجزت عقولهم أن تقدر كمال الالوهية ، فنسبوا إليها ما يمارسونه في أنفسهم من الولادة والفداء والعجز!.. تعالى الله عما يقول الظالمون...

ومن هنا ننتهي إلى القسم الأخير من البحث ، الذي نريد أن نلتقي بها بأهم مدّعيات المبشرين بهذه النصرانية البولسية في شأن المسيح (ع) سواء على ضوء أهم اكتشافين تاريخيين من حقهما أن يأتيا على أسطورة الفداء من القواعد...

أما الاكتشاف الأول فيعود إلى عام ١٨٢٠ م . أيام حملة نابليون على مصر وعكاء ، إذ عثرت البعثة الفنية الملحقة بجيشه على صورة الحكم الجنائي الذي أصدره الحاكم الروماني بلاطس على السيد المسيح ، وهو محفور على صفحـــة من البرونز ضمن وعاء من الرخـــام الأبيض ، ومكتوب بالعِبرية ، وذلك في مذبح دير الكابوشيين من ضواحي القــدس ، حيث لا يزال محفوظاً حتى الآن . وها أنذا أنقل ترجمة هذا القرار عن مجلة الإيمان المسيحية التي تصدرها البطريركية الأرثوذكسية بدمشق، وقد نقلته بدورها عن مجلة فرنسية .

يقول القرار : (بيلاطس البنطي حـاكم الجليل الأدنى ، المتسنم رئاسة مجلس الشيوخ ، يحكم على يسوع الناصري بالموت على الصليب بين لصين للأسباب التالية :

١ – ان يسوع مضلل ، ٢ – انه ضال ، ٣ – انه عدو الشريعة - أي القانون الروماني - ، ٤ – انه يدعي نبوة الله بطلاً ، ٥ – انه يدعي ملك اسرائيل بطلاً ، ٦ – انه دخل الهيكل والجموع تتبعه بسعف النخل ..

وبناء عليه فان بيلاطس يأمر كورينوس كيرنيليوس قائد المئة أن يقود المجرم إلى مكان العقاب ، ويحظر على أي شخص أن يسترحم السلطة بشأن هذا العقاب).

فهاهنا تفصيل مسهب للأسباب التي سوغت قتل هـــذا المحكوم ، ولكنها لا تعدو من الناحية السياسية إتهامه بالخروج على النظام ، ومن الناحية الدينيــة إدعاءه النبوة .. ونحن لا يهمنا من هــذا القرار إلا توكيده على نبوة المسيح الذي يُعتبر صفعة محكمة للقائلين بألوهيته ، إذ لو نسب إليه شيء من ذلك لكان التركيز عليه أولى من سواه.. ويبقى أن نذكّـر السامع والقارىء أن الوثيقة تثبت صدور الحكم ولا تثبت تنفيــذه .

ونحن لا نرى مانعاً من أن يكون السيد المسيح قد قدم الى المحاكمة أمام بيلاطس ، وأن يكون هذا قد أصدر عليه حكم الموت ، ولكننا مقتنعون بأنه لم ينفذ ، وذلك اعتماداً على شهادة الله من فوق سبع سموات بأنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبه لهم ..

وأما الاكتشاف الثاني فقد أذيـع نبؤه صباح الثامن من ذي القعدة لعام تسعين . سمعناه من محطة لنـــدن ، ثم من محطة اسرائيـــل ، وهو يقول بالحرف : **(اكتشف علماء الآثار الاسرائيليون ما يصفونه بأنه أول دليل مادي على صلب السيد المسيح) . ويقول هؤلاء : (ان الصلب حدث قبل نحو ألفي سنة ، وهي تقريبـــا نفس الفترة التي صلب فيها السيد المسيح . وقد نشرت مجلة علميـــة اسرائيلية دراسة تحليلية مفصلة عن بقايا رجل كان مثبتاً بالمسامير على صليب ،**

وقد اكتشفت العظام في إحدى المقابر القديمة ، في الشمال الشرقي من القدس غير أن العلماء - أي الاسرائيليين - يقولون : إنه غير وارد مطلقاً أن تكون عظام السيد المسيح نفسه !..)

فهاهنا نبأ مثير من شأنه أن يبعث على التفكير الكثير ، بل من حقه أن يزيل الغشاوة عن كثير من العيون التي حجبت عن الحقيقة ، لو بقي لهذه العيون قدرة الإبصار .

ولنجزّىء النبأ إلى نقاطه الرئيسية نجد ما يلي :

١ - ان الكشف قد تم على أيدي خبراء إسرائيليين في الآثار .

٢ - انهم اعتبروا هذا الكشف أول دليل مادي على صلب المسيح ، بدليل مرور ألفي سنة على الأثر المكتشف .

٣ - ان الهيكل المكتشف هو بقايا رجل ثبت بالمسامير على الصليب .

٤ - ان هذا الكشف قد حصل على مقربة من القدس ، وهو غير بعيد عن المكان الذي حدث فيه الصلب المزعوم كما تذكر الأناجيل .

٥ - ان علماء اليهود يستدركون فيعلنون بأن العظام المكتشفة لا يمكن أن تكون عظام المسيح نفسه

ولنرجع البصر في هذه النقاط لنرى إلى أي شيء تسوقنا:

فأولاً ان المكتشفين اليهود هم الذين يعلنون انما اكتشفوه يعتبر أول دليل مادي على صلب المسيح ، ثم يعلنون في النهاية إنكارهم أن تكون هذه البقايا هي عظام المسيح نفسه !. وهو تناقض عجيب بين ما يثبتون ، وما ينفون ، إذ من أين علموا أن هذا الكشف دليل مادي على صلب المسيح في حين لم يعثروا على أثر له !... وإذا كان دليلهم المادي هو كون البقايا ترجع إلى ألفي سنة ، فما أسخفه من دليل، لأن الذين صلبوا في ذلك العهد كثيرون ، والصلب كان إحدى وسائل الأعدام الرسمية أيامئذ .. فاكتشاف بقايا مصلوب مجهول لا يثبت كون فلان الآخر أيضاً قد صُلب ، إلا عند الذين طلقوا عقولهم البتة !.

على أن الكشف يظل مع ذلك ذا دلالة هامة ، إذ يثبت أن رجلاً صُلب في تلك الأثناء ، وفي ذلك المكان ، وأنه قد ثبت على صليبه بالمسامير ، وأن ظروفاً قد هيأها الله لحفظ بقايا عظامه حتى عثر بها هؤلاء الخبراء ... ولكن هل في شيء من ذلك ما يدل على أن المسيح قد صُلب حقاً ؟.. والجواب: كلا . وحجتنا في ذلك النفي معتمدة على منطقنا الاسلامي من جانب ، وعلى أخبار الأناجيل عن قصته من الجانب الآخر .

فنحن بوصفنا مسلمين نؤمن بما أخبر به المعصوم صلى الله عليه وسلم بقوله الثابت : **ان الله حرم على الأرض أجساد**

الأنبياء ...»[1] وقد ثبت ذلك من اكتشاف المسلمين لقبر النبي دانيال (ع) في العراق ، وأمْرِ الفاروق رضي الله عنه بالتعفية على قبره حماية له من الجهلاء الذين سيتمسحون به وينذرون له حتماً لو عرفوا مكانه ، فلو كان ذلك الهيكل المكتشف خاصاً بالسيد المسيح لاستحال أن يكون بقايا عظامٍ بَلِيَ لحمها .

ثم تأتي قصص الأناجيل عن الصلب المزعوم ، فتقطع بأن المسيح قد خرج من قبره ، وارتفع إلى السماء ، فظلت حفيرته خالية من آثاره . وقد أجمع النصارى على اتخاذ ذلك اليوم - يوم قيامة المسيح من بين الأموات - عيداً حتى اليوم . وعلى هذا فليس للهيكل المكتشف أية علاقة بجسد المسيح .

أما الدلالة الوحيدة التي يمكن استخلاصها من ذلك الكشف فهي أن الصلب الذي أمر به بلاطس البنطي قد نفذ ، وكان المصلوب رجلاً آخر غير المسيح ، الذي أكرمه الله فأنقذه من ذلك المصير ، الذي يستحق صاحبه اللعنة -- في ملتهم - !

والذي نرجحه أن خبراء اليهود ، عندما نفوا أن تكون الآثار المكتشفة هي بقايا المسيح ، إنما أرادوا بذلك التزلفَ إلى العالم المسيحي ، ليقابلوا قرار المجمع المسكوني بتبرئتهم من دم المسيح بخدمة مناسبة لذلك القرار . وإلا فكيف

---

(١) أبو داود وابن ماجه والنسائي والبيهقي .

يُقدمون على هذا النفي وهو مخالف لما يعتقدونه في المسيح إذْ يرمونه بالبهتان ، ويقررون في كتبهم المختلفـــة أنهم قتلوه بسبب ذلك !. ولولا هذا التزلف المراد لوجدوا في كشفهم ما يؤكد رأيهم في المسيح ، ويكذب مدّعيات المسيحيين أعدائهم التقليديين . ولكن مثل هـــذا التلوّن من خصائص النفس اليهودية التي لا تقيم للحق وزنـاً ، والتي لا تزال وستظل كما وصفها الحَـبرُ المهتدي عبدالله بن سلام رضي الله عنه عندمـا قال عن أقربائه اليهود (إنهم قوم بُهْت) !..

ومهما يكن من شيء فالوثيقتان التاريخيتان قد شاء الله أن تظهرا في الوقت المناسب ليكونا شاهدَيْ عـــدل على أن الأساس الذي نهضت عليه قصة الصلب والفداء وتأليـه السيد المسيح لا وجود له إلا في أوهـام المقلدين ، الذين لا يريدون مفارقة ما توارثوه عن آبائهم الأولين ، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

مقارنة علمية

على أنه لا بد هنا من عودة إلى نص قرار بلاطس البنطي لنطل من خلاله على جانبٍ هـام من الحقائق التاريخية لم نشر إليه بعد ، ولا وفاء للبحث بدونه . يتضح هذا الجانب من مقارنة القرار بما ورد في الاناجيل من رواية عن الصلب . وما رافقه من ملابسات . وسنكتفي هنا برواية انجيل متى كما وردت في الاصحاح (٢٧) .

يقول متى : « .. كان الوالي – بلاطس البنطي – معتاداً في العيد أن يطلق للجميع أسيراً واحداً من أرادوه . وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمّى باراباس . ففيما هم مجتمعون قال لهم بلاطس : من تريدون أن اطلق لكم : باراباس أم يسوع ؟ .. وإذ كان جالساً على كرسي الولاية أرسلت إليه امرأته قائلة: إياك وذاك البارّ لأنني تألمت اليوم كثيراً في حُلم من أجله . ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرضوا الجموع على أن يطلبوا باراباس ويهلكوا يسوع» . «.. قال لهم بلاطس: فماذا أفعل بيسوع ؟ قال الجميع : ليصلب .. فقال الوالي : وأي شر عمل !. فكانوا يزدادون صراخاً قائلين : ليصلب» .

« فلما رأى بلاطس انه لا ينفع شيئاً ، بل يحدث شغب أخذ ماء وغسل يديه أمام الجميع قائلاً : إني بريء من دم هذا البار .. فأجاب جميع الشعب : دمه علينا وعلى أولادنا ، حينئذ أطلق لهم باراباس ، وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب .. »

فها هنا امور لا غنى عن مناقشتها :

١ – في أحد الاحتفالات الرسمية برز الوالي بلاطس للناس، فاستغل كهنة اليهود وزعماؤهم هذه المناسبة ودفعوا جموع الغوغاء من أتباعهم للتجمع .

٢ – وكان من عادة الوالي أن يطلق للناس أحد سجنائهم، فخيرهم بين باراباس ويسوع ..

٣ـ كان بلاطس شديد الرغبة في إنقاذ يسوع تقديراً لفضله وبراءته .. واستجابة لشفاعة زوجته ، التي كانت تحت تأثير رؤيا مؤثرة بشأن يسوع .

٤ ـ حاول الوالي إنقاذ يسوع بمختلف الوسائل الممكنة ، حتى لقد غسل يديه تكرمة له بمشهد من أولئك الغوغاء ، ولكن محاولته لم تزدهم إلا إصراراً على الشر ..

٥ ـ لقد خشي بلاطس أن يتطور الموقف فيجر إلى فتنة سياسية لا يستطيع تحمل تبعتها، فلم يسعه إلا النزول على طلب الغوغاء ، فاسترضى عواطفهم باطلاق باراباس ..

٦ – وباطلاق باراباس تنتهي الرواية ، لتخبرنا بما حدث ليسوع بعد ذلك ، فتقول إن **بلاطس جلده وأسلمه للصلب** .

ولكن لا بد هنا من هذا السؤال :

هل كان باراباس ويسوع حاضرين أمام الجماهير أثناء ذلك الحوار الذي دار بشأنهما ؟.

والجواب المعقول : « كلا » بل كانا في المعتقل ، فلما استقر الرأي على إطلاق باراباس صدر أمر الوالي فجيء به وأفرج عنه .

ولتسكين أعصاب أولئك الأوشاب نهائياً أعلن قراره بجلد الثاني وإسلامه لمن يتولى أمر صلبه من جنود الدولة .

ولكن .. هل نفذ ذلك القرار حقاً بيسوع !..

وهل يعقل أن يقدم بلاطس على هذه الجريمة عملياً ، وهو الممتلىء تقديراً له وإيماناً بفضله وبراءته !..

اللهم لا .. وأقرب إلى المنطق أن يستبدل به مخلوقاً آخر ممن يراه أهلاً للجلد والصلب بين السجناء . هذا إذا لم نتذكر تدخل القدرة الإلهية لانقاذه من ذلك المصير ..

أقوى النصين

والآن .. لنعد النظر كرة اخرى إلى مضمون كل من النصين لقرار الصلب ، وما بينهما من مفارقات عجيبة ..

وأول ما نشاهده من ذلك هـــو الفرق بينهما من حيث الشكل .

فالنص التاريخي المحفور على رخـــامة الدير يؤلف قراراً قانونياً معللاً ، يصور بلاطس في شخصية القاضي الصارم ، والمنفذ الصلب ، فلا رحمة ، ولا شفقة ، ولا مراعـــاة لاي فضيلة ..

أما هنا في رواية متى فيختلف الوضع كلياً ... إذ يبدو بلاطس إنساناً منصفاً كريماً ، مشفقاً من الإقدام على إيذاء يسوع فضلاً عن قتله ، لأنه مقتنع بفضله وبراءته .. هذا إلى

كونه حاكماً مطلق الإرادة يقتل من يشاء ، ويفرج عمن يشاء، دون حاجة إلى أي تعليل ، لأنه لا يُسأل عما يفعل .

فلا سبيـــل إذن للتوفيق بين النصين ... ولا بد من رد أحدهما وإيثار الآخر ..

والباحث المنطقي مضطر للوقوف بجانب النص المحفور .. لأنه لا يملك الدليل على خطئه ، في حين ان النص الثاني مجرد من التوثيق العلمي لأنه رواية بغير إسناد ، ولا دليل لدينا على أنها كتبت من قبل شاهد عيان ، أو من قبل متى نفسه ، وفي أعقاب الحادث الذي تروي خبره[1] بل إن الشواهد التاريخية قائمة على أنها كغيرها من نصوص الأناجيل لم تظهر - بسبب الظروف السياسية - إلا بعد زمن طويل من عهد السيد المسيح.. هذا فضلاً عن أن كلا النصين لا يحملان أي مقنع على أن الصلب قد وقع بالفعل على ذاته عليه الصلاة والسلام .

طريق الخلاص :

وأخيراً .. ان حديثاً كهذا في أسس النصرانية وواقعها ،

---

(١) هناك شبه إجماع لدى مؤرخي النصرانية على أن إنجيل متى كتب بالعبرانية أولاً ، ثم ترجم إلى اليونانية .. ولكنهم مضطربون في تعيين المترجم : من هو ؟.. ومتى ترجمه ؟.. انظر (محاضرات في النصرانية) ص ٢ ؛ -- ٥ ؛ ط ٣ .

وما انتهت إليه ، لا بد أنه سيبعث في صدور أُولي البقية من عقلاء العالم النصراني الكثير من التردد والتدبر .. وعندما يتاح لهم أن يفعلوا ذلك سيدركون حتماً الأسباب الكامنة وراء عجز هذا الدين عن تصحيح الوضع العالمي ، وإنقاذ الفرد المسيحي في أوروبة واميركا من الضياع ، الذي أصبح يهدد الحضارة كلها بالتقويض ، والإنسانية كلها بالانهيار ..

لقد واجه العالم الكنسي في عصر النهضة بأوروبة غلياناً انتهى برفع يد الكنيسة مطلقاً عن قيادة المجتمع ، ثم هدأت العاصفة قليلاً بعد أن استرد العقل الغربي حريته في البحث والتعبير ، ولكن الغليان لم يزل يكتسح تلك المجتمعات على مختلف المستويات والأشكال ..

وليس انتشارُ الهيبية ، والغوص في وحول البهيمية ، والتفلتُ الثوري من حظيرة الإيمان ، إلا بعض الأدلة الحاسمة على أن هذا الدين البولسي قد استنفد أغراضه ، وأثبت عجزه النهائي عن الاستجابة لهتاف الفطرة ، وتأمين إروائها .. وأي برهان على الأفلاس أكبر من أن ترى الكنائس لا تستطيع اجتذاب الشباب إلى العبادة إلا عن طريق أندية الرقص ، ومشارب الخمر تقيمها بجانب كل بَيعة جديدة ـ كما هو الحال في بريطانية ـ .

أجل .. لقد أفلست دعوة بولس نهائياً، ولا يزال الإنسان في أمسّ الحاجة إلى الدين الصحيح ، لأنه قرين الفطرة الذي لا تستقيم إلا به ، وإذا فقدته انتهت إلى الضياع والدمار .. ومن سوء حظ البشرية ان أمة هذا الدين قد استولت على قياد معظم الأفكار ، حتى أصبحت طرائقها في الحياة والتفكير هي المحورَ الذي تدور حوله ، فشقاؤها شقاء للبشرية كلها ، وسقوطها سقوط للجميع ، شاؤا أو أبوا ، لذلك لا مندوحة من تصحيح الوضع الديني في العالم النصراني ، ولا تصحيح إلا بعودته إلى الحق من دين المسيح . ولئن ضاعت معالم هذا الدين في غمار الأهواء والفلسفات والتحريفات حتى انطمست ، لقد حفظه الله في كتاب لا يغسله الماء ، ولا يأتيه الباطل ، فيه نبأ السابقين ، وحكم الحاضرين ، وخبر اللاحقين ، مَن تَركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وبهذا الكتاب الخالد تنحل المشكلات ، وتمّحي العصبيات ، القائمة على الألوان والشِيات ، وتزول الاختلافات التي طالما أثارتها الأهواء في شخصية المسيح ، فإذا هو عبدٌ لله ، بلّغ رسالته، وأدّى أمانته ، وأعلن من مؤلهيه براءته ، فقال ، وهم يقرؤون في الاصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا قوله ، ضارعاً إلى ربه : (أنت الذي أعطيتني سلطاناً

لِأُعطيَ الحياةَ الأبديةَ لكلِ من أعطيتَه . وما الحيـــاةُ الأبديةُ إلا أن يعرفوا أنك أنت الإله الحقيقي وحدَك ، ويسوعَ المسيحُ الذي أرسلتـــه) . وهي الحقيقة نفسها التي سيعلنها يوم القيامة بمسمع من مؤلهيه أنفسهم ، إذ يشهد عليهم بقوله بين يدي الله : (**ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، ان اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**) .

لقد ذهب إلى غير رجعة ذلك العهد الذي كان فيه رجال بولس يقبضون على مخانق البشرية ، فلا يسمحون لها أن تتنفس إلا بالقدر الذي تريد ، وهذه طلائع النور الإسلامي قد بدأت تكتسح ظلمات النفوس حتى في قلب العالم الصليبي ، وها هي ذي أصوات الأحرار المهتدين تنطلق من كل جانب صـادعة بكلمة الحق، لا تخاف في الله لومة لائم . وقد سبق للفيلسوف الإيرلندي برنارد شو ان توقع انتشار الإسلام في أوروبة بعد مئة سنة ، ثم عاد بعد سنين قليلة ليقول : (لقد كنت مخطئاً، فقد بدأ الإسلام ينتشر في أوروبة منذ اليوم ..)

ومع ذلك فنحن نريد للانسانية خلاصاً قريباً من مأساتها

الراهنة، لذلك نتمنى لو يتحرر أولئك الرجال، رجال الدعوة البولسية ، من قيود التعصب الأعمـــى ، فيشقوا طريقهم إلى جنة الإسلام ، ليكونوا الأسوة الحسنة لمن خلفهم من المترددين والمتعصبين والضائعين ..

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ..

والحمد لله رب العـــالمين ..

فهرس

آثار المؤلف المطبوعة

١ – فضائح المبشرين	رد على شبهات	نفد
٢ – اليوبيل الذهبي	دراسة عن المجتمع النصيري	«
٣ – المرشد في الأدب العربي	بالاشتراك مع بعض المدرسين	«
٤ – نار ونور	مجموعة شعرية	«
٥ – من تراث الأبوة	مسرحية تاريخية	«
٦ – قصص من الصميم	مجموعة قصصية	«
٧ – قصص من مجتمعنا	« «	«
٨ – قصص من سورية	طبعة ثانية	

٩ – قصص للشباب والطلاب	طبعة ثانية	
١٠ – بطل إلى النار	» »	
١١ – قصتان من الماضي	» »	
١٢ – صور من حياتنا	» »	
١٣ – نظرات تحليلية في القصة القرآنية	» »	
١٤ – دروس من الوحي	نفد	
١٥ – (الأدب العربي) للسنة الأولى من الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة	بالاشتراك مع أحد الاساتذة	
١٦ – (الأدب العربي) للسنة الثانية من الجامعة		
١٧ – همسات قلب	مختارات من شعر المؤلف	
١٨ – مشكلات الجيل في ضوء الاسلام		
١٩ – تأملات في المرأة والمجتمع		
٢٠ – مشاهد من حياة الصدّيق		
٢١ – أفكار اسلامية	محاضرات	
٢٢ – الآيات الثلاث	حوارية طويلة	

يصدر قريبا

١ - صور ومشاعر — مذكرات ادبية

٢ - أحاديث قصيرة

٣ - من أجل الاسلام وحواريات اخرى

٤ - قصص من مجتمعنا — طبعة ثانية

٥ - دروس من الوحي — « «